المبحث الرابع

مطالع لبيد ومقاصده

القصيدة الأولى :

مطلعها [1]:

عَفَتِ الدِيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها بِمَنىً تَأَبَّدَ غَولُها فَرِجامُها

هذه القصيدة هي معلقة لبيد ، وهي إحدى القصائد الطوال المعدودة في الشعر العربي القديم ؛ إذ يستهل مطلعها بحديث الطلل والديار ، ويمتد في ذلك أحد عشر بيتًا ؛ يذكرأحوالها وأوصافها ، ويذكر فيها الدمن ومباءاتها ، بعد أن تجرم وانقطع أهلها عنها ، ويدعو الله أن يرزقها الغيث العميم .

ثم يقف حائرًا يسأل تلك الديار عن حالها ، وماذا جرى لها . فلايجد جدوى في الإجابة عن ذلك!!؟ .

ثم ينتقل إلى وصف الظعن في أربعة أبيات ، يذكر فيها مشهد الهوادج والارتحال حتى (حفزت وزايلها السراب) فغدت كشجر بيشة ، أو صغار جبالها . ثم يعرج بالحديث عن محبوبته نوار ، وتذكر عهدها الذي مضى ، ويذكر نسبها ومكانها ومنبتها ؛ وذلك في أربعة أبيات أيضًا .

ثم تستغلظ نبرةُ الحديث في بيتين ؛ وذلك بإعلان المواجهة والقطيعة مع من قطعه . وكان ذلك عن طريق راحلته المنهوكة من كثرة السفر والترحال ؛ ليصفها ويصف هزالها ، وشدة سرعتها ، ويشبهها بالسحابة الصهباء التي قل

---

(١) ديوان لبيد ، ص٢٩٧ .

ماؤها . وذلك في ثلاثة أبيات . ثم ينتقل إلى حالة أخرى أكثر وضوحا وقربًا إلى طبيعتها ، ويشبهها بأتان قد حملت واستبان حملها ، فأغلقت رحمها على ماء فحلها الذي أضمره (طرد الفحول وضربها وكدامها) فأخذ يعلو بها حدب الأكام ، ويذكر معاناته معها في آلام وحامها ، ويترقب من حولها حذرا من ترصد صائد كامن وراء تلك الآكام ، حتى إذا انسلخ شهر جمادى الآخرة رجع بها إلى رأي سديد ، وقد انقضى بذلك فصل الربيع ودخل فصل الصيف ، فمضى الفحل نحو الماء يقدم أتانه لئلا تتأخر فيرتاب .

ثم يقف متسائلاً نفسه في حيرة من أمره ؛ أي تلك الحالات أقرب إلى ناقته؟!! .. الأتان وفحلها؟ أم بقرة وحشية ، مذعورة قد راعها سبع بأكل ولدها ، بعد أن غفلت عنه وضاع منها ، فلم تره إلا وقد تعفر في التراب؟ ثم يستطرد في عرض تفاصيل تلك الفاجعة الأليمة ، بعد أن صدع مؤكدًا (أن المنايا لاتطيش سهامها) ، جاء ذلك في ثمانية عشر بيتًا ، فصَّل فيها القول في وصف مشاهد الأحداث العصيبة ، ومواجهته تلك السباع الضارية ، ومصارعتها وانتصاره عليها .

ثم تراه يعرِّج مرة أخرى في بيتين إلى حديث الصاحبة (نوار) بعد استفهام ينم عن استنكار وتعجب ، وهو يلوح في عزة وخيلاء بمبدأ القطيعة أو الوصل ؛ فالصلة مع من يستحقها ، أو إشهار سيف الهجر والملاحاة!! .

ثم يلج منتشيًا في حديث الخمر ، وشرائه إياها بغالي الأثمان ، وتلذذه بمنادمته لها مع كرام القوم ، وسماعه اللهو والغناء . ثم يحوم في مهاد غرض الفخر ، وحديثه عن حمية الحي ، واعتلائه الفرس وانتصابها ، وحمله السلاح عليها ، وانطلاقه بها ، ثم تراه يدعو جميع من حوله لإطعام الطعام ، حتى أصبح بيته مأوى للضعفة والمحتاجين . إلى أن يدخل إلى صميم الغرض ، وحديث الفخر ، والتغني بصفات الحسن والإحسان ، في وصف مترابط البيان ، تملؤه أنغام التباهي والعجب ؛ وبذلك تختتم القصيدة .

والقصيدة كما هو ظاهر بنيان مشيَّد على أقسام متنوعة الموضوعات ، تصب في محيط غرض الفخر ، والتغني بأمجاد القبيلة .

أولاً : ذكر الطلل وعفاؤه : [1]

عَفَتِ الدِيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها ... بِمَنىً تَأَبَّدَ غَولُها فَرِجامُها

فَمَدافِعُ الرَيّانِ عُرِّيَ رَسمُها ... خَلَقاً كَما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

(١) ديوان لبيد ، (ص٢٩٧-٣٠٠) وبهامشه : (عفت : درست ، المحل من الديار : ما أقام فيه لأيام معدودة ، والمقام منها : ماطالت الإقامة به ، منى : موضع قريب من طخفة بالحمى في بلاد غنيٍّ وكلاب ، ، وليس المراد منها «منى مكة» ، الغول والرجام : جبلان ، وقيل الغول : ماء معروف ، والرجام : الهضاب ، المدافع : مجاري المياه ومسايله ، الريان : وادٍ بالحمى وهو أيضا : جبل في بلاد بني عامر ، عري : خلعت عنه ثيابه أي ارتحل عنه فعري بعد أن أخلق لإقامتهم فيه ، وحي الكتابة ، السلام : الحجارة ، تجرم : انقضى وانقطع ، الحجج : السنة ، الحلال : الشهور الحِلَّ ، الحرم : الشهور الحرم ، وهي أربعة ، رزقت : دعاء لها بالسحاب والمطر ، وصابها : أي أصابها نزل عليها ، الوجود : المطر الشديد الكثير ، قال ابن الأنباري : هو المطر الذي يرضي كل شيء ويرضاه أهله (شرح ابن الأنباري ص٥٢١ ، شرح السبع الطوال دار المعارف بمصر ط٤ ، ١٩٨٠م) الرهام : هي المطرة الضعيفة اللينة ، السارية : السحابة الماطرة ليلا ، الغادية : الذي يجيء بالغداة ، الدجنة من الغيم : المطبق تطبيقاً ذو الغيم المتلبد المظلم ، الإرزام : صوت الرعد ، وأصله حنين الناقة ، علا : ارتفع وطال ، الأيهقان : الجرجير البري ، أطفلت : أي ولدت ظباؤها فصارت ذات أطفال وباضت نعامها . . ، الجهلتان : جانبا الوادي ، العين : بقر الوحش ، والأطلاء : جمع طلاء وهو ولد الوحش حين يولد إلى أن يأتي عليه شهر ، العوذ : وهي الحديثة النتاج ، وتأجل : تصير آجالاً الواحد أجل وهو القطيع من الشاء والظباء ، الفضاء : المتسع من الأرض ، البهام : جمع بهمة وهي من أولاد الضأن خاصة ، جلا : كشف ، الطلول : ماشخص من آثار الديار ، زبر : الكتاب ، متونها أقلامها : تعاد عليها الكتابة بعدما درست ، الرجع : الترديد والتجديد ، أسف : سقى وذر عليه النؤور وهي مادة الوشم ، كففا : دوائر وحلقات ، تعرض : أقبل وأدبر وظهر ولاح).

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعدَ عَهدِ أَنيسِها ... حِجَجٌ خَلَونَ حَلالُها وَحَرامُها
رُزِقَت مَرابيعَ النُّجومِ وَصابَها ... وَدقُ الرَّواعِدِ جَودُها فَرِهامُها
مِن كُلِّ سارِيَةٍ وَغادٍ مُدجِنٍ ... وَعَشِيَّةٍ مُتَجاوِبٍ إِرزامُها
فَعَلا فُروعُ الأَيهُقانِ وَأَطفَلَت ... بِالجَهلَتَينِ ظِباؤُها وَنَعامُها
وَالعَينُ ساكِنَةٌ عَلى أَطلائِها ... عوذاً تَأَجَّلُ بِالفَضاءِ بِهامُها
وَجَلا السُّيول عَنِ الطُلولِ كَأَنَّها ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أَقلامُها
أَو رَجعُ واشِمَةٍ أُسِفَّ نُؤورُها ... كِفَفاً تَعَرَّضَ فَوقَهُنَّ وِشامُها
فَوَقَفتُ أَسأَلُها وَكَيفَ سُؤالُنا ... صُمّاً خَوالِدَ ما يُبينُ كَلامُها
عَرِيَت وَكانَ بِها الجَميعُ فَأَبكَروا ... مِنها وَغودِرَ نُؤيُها وَثُمامُها

يستهل لبيد مطلع حديث الديار ، والطلل بذكر العفاء ، وهو فعل لافت ينم عن شعور بالانمحاء والانطماس ، ويوحي للحس بفقدانه لذلك المكان لشعور الولاء ، والاحتضان والراحة . وجاء التعبير (عفت الديار محلها فمقامه) ليدل على التعميم والشمول ، وهو مايشير إلى سريان ذلك الحس من حوله ، ويكشف عن الطبيعة الملابسة للشاعر التي ظلت ملازمة له على امتداد هذا المقطع . «ويصر الشاعر على تحديد مكان الديار (بمنى) ليؤكد حضور المكان . . إذ يتحول من مجهول غير مسمى وغير محدد ، إلى مكان مسمى ومحدد ، وأن هذه التسمية إلحاح على حفظ المكان شعوريًّا وذهنيًّا»[1]. والتأبد يشيع صورة عراء ذلك المكان ، ويشي بمباعدته لمباهج الحياة والألفة ؛ فنراه يؤكد على ذلك الإحساس المنتشر في مناحي زواياه وأركانه ، فترى (مدافع الريان عري رسمها) أيضًا ، حتى غدت (خلقًا) ، وهو تأكيد على فعل

(١) الشعر الجاهلي : «مقاربات نصية»، دكتور موسى سامح ربابعة ، ص٢٢، دار الكندي ، ٢٠٠٣م .

الانعفاء والتعرية . و (الريان) اسم فيه دلالة على معاني الارتواء ؛ وكأن ذلك الريُّ آخذ في النضوب والجفاف . ثم جاء بصورة محسوسة تلخص كل ذلك المشهد وتقربه للعيان ؛ فهذه الآثار العافية لا تُرى آثارها إلا كما تُرى آثار نقش الكتابة على الحجر الأصم الخالد ، فلا تكاد تستوضح لناظرها إلا على مقربة منها .

ثم أعقبها بصورة الدمن ، وسواد آثار ما خلَّف القوم ، بعد أن انقضى عهد أنيسها وتصرَّم ، وهي تكريس لفكرة التعرية وإثارة مشاعر الوحشة ، وتوحي بانقطاع زمان بهيج حافل بمسرات النفس وأُنسها!! .

ثم ينتقل الشاعر بجملة دُعَائية ليهرب بذاته من عالم الواقع المحيط به إلى عالم الأمنيات الحالمة ؛ فيطلب فيها الرزق ، وانهمال الغيث العميم على تلك الديار ومنازلها ، حتى لا تكاد تكف عنها بكرة وعشيًّا ، وتلفها الزروع ، وتحيط مرابيها خضرة الطبيعة ونضرتها ، وتمتلئ جنبات ذلك الوادي بمرابع العيش ، ومراتع الظباء والنعام ، وهي تلهو مع أطفالها ، وترى بقر الوحش يتكاثر بمطافل بهمه ، ويملأ المكان حياةً وبهجة ونماءً . وهي صورة بعيدة الدلالات ؛ لأنها تعكس دلالات الحياة ، والأمن ، والخوف ؛ حتى إن صغارها تحدث جلبة وأصواتًا لا تعكس الفزع ، والخوف ، وإنما تعكس الفرح والنعيم . وهذه صورة خيالية الحضور على المستوى الإنساني المتطلع إلى حياة هانئة مليئة بالأمن ، غير مهددة بالموت ، وغير محاطة بالمخاوف [1].

لاشك أن صورة هذا المكان قد اختلفت بشكل جذري عما بدأت به ، وذلك بانتقال الخطاب من عالم الواقع المشاهد ، إلى عالم الشاعر الجُوَّاني الذي صنعه لنفسه ، ليعيش فيه لحظاته الخالدة في النفس ، ويملي عليها عالم افتراضاته الحالمة .

---

(١) الشعر الجاهلي «مقاربات نصية» بتصرف : ص٢٦ .

ثم يختم مشهد ذلك الحلم الجميل بصورة هي أقرب لملامسة الواقع والبوح به في ستار شفيف ؛ وهي صورة السيول حين تجوب أطلال تلك الديار لتكشف عن بقايا آثارها المندثرة المستكنة في زوايا جنباته ، وتحاول أن تجدد آثار عهد مضى ، وتعيد عهده الزاهر ليروي حكاية زمن جميل تاقت النفس إليه ، بعد أن عفت آثاره وانطمست .

ويتناغم الصوت بين الفعلين (جلا) و (علا) ، ويمثل الفعل (جلا) حالة « الكشف والإبانة ، والوضوح ، في مقابل الانمحاء ، والانطماس ، والتخفي التي كانت تسيطر على لوحة الطلل في مقدمة القصيدة ، إذ إن السيول أصبحت قادرة على الكشف عن الأطلال ، والكشف عن الأطلال يعني الإبانة والظهور ، وهما صفتان ، قادرتان على إعادة الحياة للأطلال المندثرة »[1].

ثم أتى بهيئة حال أخرى موازية تحمل نفس المغزى ، لكنها على ـ مايبدو ـ أعمق أثرًا في إظهار علقة النفس بذلك الزمن الحاني ، وأكثر إصرارًا على إعادة مسار الحياة إلى سابق عهدها التليد . وهو حال ترديد يد الواشمة بالإبرة على آثار معصمها لتعيد نضرة تلك الزينة وأناقتها ، وتجعلها في أبهى صورة لها . ثم عمد الشاعر إلى استنطاق طلله ، فوقف وسأل معالم آثاره الخرساء ، في لحظات اندفاع وبوح »؟!! . ليكون الجواب مستدركا للحظة السؤال ذاته (وَكَيفَ سُؤالُنا صُمّاً خَوالِدَ ما يُبينُ كَلامُها) ، فكانت لحظة إفاقة مباغتة من ذلك الحلم الجميل ، ومشاهدة للواقع المرير ، وتقرير لتلك الحقيقة الماثلة أمام الحس والعيان!! .

كان أول صدوع له بعد تلك اللحظات الحالمة قوله : (عَرِيَت) والعراء من جنس العفاء ، ليعود ويثني الكلام بمثل ما ابتدأ به جملة استهلال المطلع : (عَفَتِ الدِيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها) والبيت الثاني : (فَمَدافِعُ الرَيّانِ عُرِّيَ رَسمُها) ،

(١) الشعر الجاهلي « مقاربات نصية » : ص٢٦ .

فينسجم جو الحديث ، ويلائم بين أفكاره ، فيعود ويواجه حقيقة ذلك الواقع الذي « كانَ بِها الجَميعُ ، فَأَبكَروا مِنها وَغودِرَ نُؤيُها وَثُمامُها . . »

ثانياً : حديث الظعن وانفصال الذات :

شاقَتكَ ظُعنُ الحَيِّ حينَ تَحَمَّلوا ... فَتَكَنَّسوا قُطُناً تَصِرُّ خيامُها[1]

مِن كُلِّ مَحفوفٍ يُظِلُّ عَصِيَّهُ ... زَوجٌ عَلَيهِ كِلَّةٌ وَقِرامُها

زُجَلاً كَأَنَّ نِعاجَ توضِحَ فَوقَها ... وَظِباءَ وَجرَةَ عُطَّفاً آرامُها

حُفِزَت وَزايَلَها السَّرابُ كَأَنَّها ... أَجزاعُ بيشَةَ أَثلُها وَرُضامُها

بَل ما تَذَكَّرُ مِن نَوارَ وَقَد نَأَت ... وَتَقَطَّعَت أَسبابُها وَرِمامُها

---

(١) شرح المعلقات العشر ، لأبي زكريا التبريزي ، تحقيق : محمد شحاته إبراهيم ، ص١٧٨-١٨٢ طبعة أولى ، ١٤٢٦هـ ، مكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة . وبشرحه : (شاقتك : حملتك على الاشتياق ، تحملوا : ارتحلوا بأحمالهم ، تكنسوا : دخلوا في الكنس وهي بيوت الظباء والمقود هنا الهودج ، القطن : جمع قطين وهم الجماعة ، تصر خيامها : الصوير صوت الرحل ، تصر لثقلها ، أو لجدتها ، أولسرعة الإبل في المشي ، المحفوف : الهودج حف بالثياب أي غطي بها ، الزوج : النمط الواحد ، الكلّة : الستر الرقيق يخاط كالبيت ليتوقى به من البعوض ، القرام : ثوب من صوف ملون ، زجلاً : جماعات ، النعاج : البقر الوحشية ، توضح ووجرة : موضعان ، عطفا : ثانية الأعناق ، الآرام : ظباء بيض خوالص البياض ، حفزت : دفعت واستحثت في السير ، زايلها السراب : دفعها السراب إلى سراب ، أو فارقها السراب ، الأثل : شجر تسوى به الأقداح ، الرضام : صخور عظام يرضم بها فوق بعض في الأبنية ، أسبابها : الأسباب الحبال ، والرمام : الحبال الضعيفة البالية ، مرية : امرأة منسوبة إلى بني مرة ، فيد : بلدة في طريق مكة ، مرامها : مطلبها ، الجبلان : جبلا طيء (أجأ وسلمى) تضمنتها : نزلت فيها ، المحجر : جبل آخر ، فردة : موضع ، رخام : جبل قريب من فردة ، صوائق : جبل قريب من مكة لهذيل ، أيمنت : أخذت ناحية اليمين ، فمظنة : أي حيث يظن وجوده فيه ، الوحاف : إكام صغار إلى جانب القهر والقهر : جبل ، طلخام : موضع).

مُرِيَّةٌ حَلَّت بِفَيدٍ وَجاوَرَت أَهلَ الحِجازِ فَأَينَ مِنكَ مَرامُها
بِمَشارِقِ الجَبَلَينِ أَو بِمُحَجَّرٍ فَتَضَمَّنَتها فَردَةٌ فَرُخامُها
فَصُوائِقٌ إِن أَيمَنَت فَمَظِنَّةٌ فيها وِحافُ القَهرِ أَو طِلخامُها

جاء ذكر الظعن مرحلةً ثانية من مراحل حديث المطلع ، حيث يقف الشاعر فيه وقوف مودع لذاته وهو يشاهد لحظات ارتحال محبوبته ، دون أن يملك أدنى حيلة في ثَنْيهم عن ذلك الرحيل ؛ فيلتفت بالخطاب مجردًا من نفسه نفسًا أخرى يخاطبها ويبثها شكواه ، ويقاسمها ذلك الشوق والحنين ؛ فيصدع بذلك الإحساس بقوله : (شاقتك) ليحاول أن يلملم جراحه عند مشهد ذلك الفراق الصعب وقد حفزت واستحثت في خطى سيرها ، ويحاول أن يستمتع بآخر لحظات ذلك المنظر المشوق ، فيرى فيه مايشبه أشجار الأثل حين تضربه الرياح ، أو صغار جبال بيشة . وما ذلك إلا محاوله لاستعادة عزيمة نفسه المتصدِّعة بعد أن يئست ، حين رأت ذلك المشهد وهو يتوارى خلف السراب بسرعة واستحثاث ، فانبرى لنفسه يوقظها قبل أن يدب إليها الوهن ، ويسري في عزيمتها الضعف وروح الانهزام ؛ فهب لذكر محبوبته (نوار) على سبيل الإضراب والقطع بـ (بل) ؛ ليمهد طريق الانفصال ، فيتحول أسلوب التجريد من كونه ظاهرة أسلوبية ، إلى ظاهرة انفعالية ؛ ووجدانية ، تمثل كيفية انشطار الذات إلى ذاتين ، وأن هذا الانشطار يمثل الحالة النفسية والعصبية التي يعيشها الشاعر »[1]، « ويقيم حوارًا داخليا لكنه قاسٍ ؛ فهذا الأسلوب يغدو شكلاً من أشكال مواجهة الذات ، وحوارها ولومها »[2]؛ لذا عمد إلى استنقاد آخر ماتبقى له من عاطفة التشوق والتلهف والتوديع ؛ فتراه يذكر حسبها ، ونسبها وأصل

(١) الشعر الجاهلي « مقاربات نصية » دكتور موسى ربابعة : ص٣٠ .
(٢) قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي ، دكتور موسى ربابعة ، ص٩٠ طبعة أولى ، ١٤٣١هـ ، دار جرير ، عمَّان .

منبعها ، ومَنْ جاورت (مُرِّيَّةٌ ، حَلَّت بِفَيدِ ، وَجاوَرَت أَهلَ الحِجازِ ، فَأَينَ مِنكَ مَرامُها؟!!) .

والاستفهام هنا ينم عن شعور بالاستغراق في المباعدة والتنائي ، واستحالة مرام الوصال منها بشيء ! ؛ لذا فحال تذكر (نوار) يعد مصدرا لتوليد روح الانفصال وبتر العلاقة .

ولعلَّ في اختيار هذا الاسم ، مايعين الشاعر على استرداد طاقة النفس وطرد الوهن عنها ، لإنفاذ قرارها الصعب!! ؛ ففي اسم النوار مايدل أيضًا على النفور ، وفي اللسان : النوار : النفار ، وامرأة نوار : نافرة من الشر ، والقبيح ، والريبة!![1].

فهناك من الباحثين يرى أن أن كل جزء من أجزاء هذه القصيدة مردها إلى حالة «نوار» ودورها[2]. ويعلق على تلك الحالة قائلاً : [3] (يبدو أن هجرة نوار والقطيعة التي نشأت بينها وبين الشاعر هما عامل الأزمة الذاتية التي أنتجت معلقة لبيد» .

فموقف لبيد وتذكُّر الحال بمثابة لحظة الانفجار ، وتحطيم انهزام عواطف الذات والشعور ، واعتلاء قبة الأنفة ؛ لاستعادة النفس ثقتها ، وبدء المواجهة ، وإعلان حالة الانفصال .

---

(١) اللسان : (نور) .

(٢) مركزية المرأة في معلقة لبيد ، عبد العزيز محمد شحاته ، مجلة جامعة البعث ، ص٣٠، العدد السادس عشر ، ١٩٩٥م .

(٣) بحوث في المعلقات ، يوسف اليوسف ، ص١٧ ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد ، دمشق ، ١٩٧٨م .

ثالثاً : إعلان المواجهة والانفصال برحيل الناقة :

فَاقطَع لُبانَــةَ مَــن تَعَــرَّضَ وَصــلُهُ ... وَلَشَــرُّ واصِــلِ خُلَّــةٍ صَــرّامُها[1]

وَاحبُ الــمُجامِلَ بِالــجَزيلِ وَصَرمُهُ ... بــــاقٍ إذا ضَــــلَعَت وَزاغَ قِوامُهــــا

بِطَلَــــيحِ أَســــفارٍ تَــــرَكنَ بَقِيَّــــةً ... مِنــــها فَــــأَحنَقَ صُــــلبُها وَسَــــنامُها

وَإِذا تَغــــالى لَحمُهــــا وَتَحَسَّــــرَت ... وَتَقَطَّعَــــت بَعــــدَ الكَــــلالِ خِــــدامُها

فَلَهــــا هِبــــابٌ في الزِمــــامِ كَأَنــــَّها ... صَهباءُ خَفَّ مَعَ الــجَنوبِ جَهامُهــا

يصدع لبيد بإعلان القطيعة وطي صفحة الاستكانة والخضوع لسيطرة العواطف ، وحط رحالها عند ذلك الحد ، والنزوع إلى مجرى آخر وتصعيد لهجة الخطاب وحدته فحاولت الفاء العاطفة (فاقطع) استظهار روح هذا المعنى ، والشروع في المواجهة والجهر بذلك . ثم ترى الشاعر يمتطي صهوة بيانه سالكًا طريق أسلوب التجريد الذي اعتاده في تحولات مقاطع هذه القصيدة ، حتى غدت سمتًا لها يميزها بجلاء عن غيرها ، وربما كان في هذا الخروج والتنوع الخطابي ما يُعدُّ متنفسًا له ينسل به عن أضغان صدره وحرجه ؛ لذا تراه قد أَكثر من الاعتماد عليه في هذه القصيدة!!.

---

(١) شرح المعلقات العشر ، وبهامشه : (اللبانة : الحاجة ، تعرض وصله : تغير وحال ، الخلة : الصداقة المتناهية ، أحب : من الحباء أي العطية ، الجامل : المصانع ، بالجزيل : بالود الجزيل ، الصرم : القطيعة ، والزيغ : الميل ، قوامها : عمادها ، طليح : الناقة المهزولة من الإعياء والتعب ، أحنق : ضمر سنامها ودق ، والإحناق : لزوم البطن بالصلب ، تغالى لحمها : ارتفع وذهب وصار على رؤوس العظام ، تحسرت : أي تحسر عنها البدن ، وقيل : سقط وبرها ، وقيل أيضا : صارت حسرا من انحسار الوبر عنها ، الخدام : جمع خدمة وهو سير غليظ محكم مثل الحلقة ، ويشد في رسغ البعير ثم يشد إليها نعال الإبل عند الحفا إذا رتعت ، الهباب : الهياج والنشاط ، الصهباء : السحابة الحمراء قليلة الماء فهي خفيفة السير سريعة ، الجهام : السحاب الذي قد أراق ماءه) .

والفاء في قوله : (فقطع لبانة) فاء فجائية ؛ لأنها وشت بالمفاجأة . كما يرى الشهاب[1]. وهي من قبيل الفاء التي تفاجئ الخصم بما لايتوقعه من الحجة الملزمة[2] التي تقطع العذر ، وتنهي الحوار ، وتدفع المخاطب إلى التسليم بمنطق المتكلم . لكنها هنا فاجأت ذات الشاعر ، والمسار الذي انتهجه في البوح عن مكنونات نفسه الجياشة ؛ فكانت حاملة صرخة احتجاج مدوية ، لاستعادة الهيمنة على مسارب النفس .

و الشاعر في إعلان مواجهة القطع وإنفاذ رؤيته في صرم العهد حيال قطعه ، أو تذمر من وصله ، ومصانعة من يستحق الود منك ، وإلا فاقطعه يستعين بناقة معيية قد هزلت من كثرة أسفارها ، فضمر سنامها ودق . و (الباء) ، تدل على مدى الاعتماد والاستعانة على هذه الناقة ، وكونها مهزولة ضامة ؛ مايدل على قوتها وشدة بأسها ، وقدرة مجاراتها لأهوال المواقف العصيبة واعتيادها عليها ، فلاتضيق ولاتكل! . حتى إذا ارتفع لحمها ونشز ، وصار على رءوس العظام ، إذا بها تنطلق ولها هياج ونشاط ، كأنها سحابة صهباء هراق ماؤها فخف مسيرها ، وأسرع نحو الجنوب .

هذه الناقة المهزولة يبدو أنها أدت دورها بكل اقتدار وتفانٍ ؛ فأنفدت طاقتها بكل استبسال ، وفي اختيار الشاعر صورة السحابة الصهباء ، ـ والصهباء : الحمراء التي قل ماؤها ـ ، مايشي بنفاد مافي جعبتها واستهلاكه ؛ لذا نرى الشاعر يعدل عنها سريعا لينيط الدور إلى حال أخرى تستكمل المهمة بكل جسارة وحزم ، وثبات .

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، شهاب الدين الخفاجي ٤١٣/٦ ، دار صادر ، بيروت .

(٢) ذكرها الزمخشري في الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ، جارالله الزمخشري ، ٨٦/٣ ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

رابعاً : الأتان الواسقة وقدرتها على استكمال المهمة :

أَو مُلمعٌ وَسَــقَت لأَحقَــبَ لاحَــهُ ... طَردُ الفُحولِ وَضَــربُها وَكِــدامُها[1]

يَعلو بِها حُــدبَ الإِكــامِ مُسَــحَّجٌ ... قَــد رابَــهُ عِصــيانُها وَوِحامُهــا

بِــأَحِزَّةِ الثَّلَبــوتِ يَربَــأُ فَوقَهــا ... قَفرَ الــمَــراقِبِ خَوفُهــا آرامُهــا

حَتّــى إِذا سَــلَخا جُمــادى سِــتَّةً ... جَــزءً فَطــالَ صِــيامُهُ وَصِــيامُها

رَجَعــا بِأَمرِهِمــا إِلى ذي مِــرَّةٍ ... حَصِدٍ وَنُجــحُ صَريــمَةٍ إِبرامُهــا

---

(١) شرح المعلقات العشر ، وبشرحه : (الملمع : الأتان التي قد استبان حملها ، وسقت : أي حملت وأغلقت رحمها على الماء ، الأحقب : العير الذي في وركيه أو خاصرتيه بياض ، لاحه : أضمره ، وغيره ، الكدام : العض ، الحدب : ما ارتفع من الأرض ، الآكام : جمع الأكمة وهي اجتمع من الحجارة في مكان واحد ، وقيل : هو الموضع الأشد ارتفاعا من غيره ، المسحج : العضاض ، عصيانها : امتناعها ، وحامها : اشتهاء الحبلى للشيء ، بأحزة الثلبوت : موضع كثرت حجارته ، يربأ : يعلو ويشرف ، المراقب : مواضع مشرفة ينظر منها من يمر بالطريق ، الآرام : أعلام الطريق ، سلخا جمادى ستة : خرجا منها ، جمادى ستة : أي جمادي الآخرة ، جزءا : أي اكتفى بالرطب عن الماء ، المِرَّة : الرأي القوي ، وأصله إحكام الفتل ، الحصد : المبرم المحكم ، الصريمة : العزيمة ، نجح صريمة : نجاح الأمر في إبرامه وإحكامه ، الدوابر : مآخير الحوافر ، السفا : شوك البهمى ، السفا : التراب ، تهيجت : هاجت ، المصايف : الصيف ، السوم : المر ، وقيل : اختلاف الهبوب ، السهام : الريح الحارة ، وقيل : وهج الصيف وغباره ، سبطا : الغبار الممتد ، مشعلة : حطب ، الضرام : الحطب الدقيق ، مشمولة : أي نار هبت عليها نار الشمال ، غلثت : أي يخلط ما أوقدت به ، نابت : الغض الطري ، العرفج : نبات سهلي سريع الاشتعال طيب الريح ، أسنامها : أعاليها ، عردت : تركت الطريق وعدلت عنه ، توسطا : خاضا الماء ، العرض : الناحية ، السرى : النهر الصغير ، وصدعا : شقا ، مسجورة : أي عين مملوءة ، : القلام : ضرب من الحمض ، وقيل : هو القصب ، محفوفة : يعني العين حفت بالماء ، اليراع : القصب ، المصرع : المائل وكأن الريح تصرعه ، الغابة : الأجمة التي طالت ، قيامها : انتصابها).

وَرَمى دَوابِرَهـــا السَـــفا وَتَهَيَّجَـــت ريحُ الـــمَصايفِ سَـــومُها وَسِـــهامُها
فَتنازَعـــا سَـــبطاً يَطـــيرُ ظِلالُـــهُ كَـــدُخانِ مُشـــعَلَةٍ يُشَـــبُّ ضِـــرامُها
مَشـــمولَةٍ غُلِثَـــت بِنابِـــتِ عَـــرفَجٍ كَـــدُخانِ نـــارٍ ســـاطِعٍ أَســـنامُها
فَمَضـــى وَقَـــدَّمَها وَكانَـــت عـــادَةً منـــهُ إِذا هـــيَ عَـــرَّدَت إِقـــدامُها
فَتَوَسَّطا عُـــرضَ السَّـــرِيِّ وَصَـــدَّعا مَســـجورَةً مُتَجـــاوِراً قُلاَّمُهـــا
مَحفوفَـــةً وَســـطَ اليَـــراعِ يُظِلُّهـــا منـــهُ مُصَـــرَّعُ غابَـــةٍ وَقِيامُهـــا

ينتقل لبيد متدرجا الصعود إلى مرحلة أخرى هي أقوى وأشد وأظهر لرسم ملامح الصراع واحتدامه ؛ فهي تحمل بين طياتها مفارقات في المشاهد التي مزجت بروح الأمل الآفل وراء الغيوب!! . ترى ذلك ماثلاً في صورة الأتان التي حملت من فحل غليظ ، شديد العض والكدام . وما أشبه رمزية دلالة هذه الصورة بسابقتها ؛ فهناك صورة السحابة الصهباء التي ذهب ماؤها ، وهنا الأتان الحامل من فحلها المسحج . والسحابة ترمز إلى الحياة ، ولكن أي حياة ؟!! ، إنها حياة مسلوبة الروح والنماء ، والخصب ؛ فقد ذهبت هذه المعاني بذهاب مائها وجفافه! .

وصورة الحمل ترمز إلى الحياة أيضًا ، لكن هذه الحياة تتحول إلى معاناة بفعل هذا الفحل المسحج الذي ظل يعلو بها حدب الإكام وماستغلظ من الأرض . ويبدو أن ذلك راجع إلى شعوره منها بالريبة والشك ، لمَّا رأى عصيانها ووحامها . فسرعان مافقدت هذه الصورة خصبها ، ونماؤها أيضًا ، بعودة هذه الأتان إلى اللهث وراء الماء ، والشعور بالعطش بعد أن انسلخ جمادى ستة ؛ فالصورتان منسوجتان بطابع دلالي واحد تقريباً ! .

وهذه الصورة تعيدنا إلى نافذة المطلع وصورة العفاء والدمن التي ارتسمت في ظاهر ملامحها وأطلت على أركان هذه القصيدة . فقد كان لذلك العفاء حدود مكانية (بمنى تأبد غولها فرجامها) وزمانية (حجج خلون حلالها

وحرامها) كذلك هذا العطش وفقدان الارتواء ؛ فقد كان بانسلاخ شهر جمادي الآخرة بعد تمام ستة أشهر من بداية السنة ، وكان مكان ذلك (بحدب الإكام وأحزة الثلبوت) ! .

إن حالة الظمأ الذي أصاب هذه الأتان وفحلها يتطلب منهما موقفًا شجاعًا حاسمًا في إنفاذه للانتجاع في طلب الماء ، فكما أن الشاعر قابل موقف (نوار) بقطع وصلها بكل صرامة وحزم ، فهاهو الآن يتطلب الموقف منه موقفاً مشابها من القوة ، والحزم وشدة البأس ؛ ليواجه به تحدياته القائمة في استشعاره العطش ، واقترابه من لحظات الهلاك .

فهناك صور من التحدي واجهت الشاعر ، ـ كما يرصدها دكتور موسى ربابعة ـ : [1] « تحدي التهدم المكاني ، وتحدي الجفاف ، وتحدي نوار ، لكنه استطاع أن يتجاوز هذه التحديات بالصرامة والقوة والصلابة . . بل ما تذكر ، (فاقطع) ، (واحب) ؛ لذلك يرى دكتور موسى أن قوله : (ونجح صريمة إبرامها) موقف لاينسحب هنا على عالم الحيوان فقط ، وإنما ينسحب على عالم الشاعر وعلى رؤيته . وهي رؤية يريد الشاعر أن يسقطها على عالم الحيوان ؛ لأنها تشبع طموح حفظ الذات ، وهو طموح متجذر في نفس الشاعر حتى النخاع ، بعد سلسلة الهزات والصدمات التي تعرض لها » .

وهذه رؤية تحليلة عميقة شخصت الحالة العامة التي ظلت هاجسًا مسيطرًا على مواقف الشاعر حيال مايعترضه من مواجهات محتدمة! .

ثم يستعيد لبيد هيئة المطلع وعفاء أطلاله ودمنها ؛ فتطل على مشهد الأتان وفحلها مرةً أخرى ، حينما رمت السفا دوابرها ، فتعود الطبيعة مرة أخرى لتنفض غبارها ، وتمارس العنف ، وترمي بشوك البهم على حوافرها ، وتبدي وجهها الكالح بتصاعد ذرات الغبار التي تشبه دخان نار قد شبَّ ضرامها ، وأوقد

(١) الشعر الجاهلي مقاربات نصية : ص٣٣ .

حطبها حتى غدت ساطعة في أعالي الأفق . هذه الهيئة المركبة تظهر حالاً من الفزع والخطر المحدق الذي يحيط بهما ، وهذا ما يوقد جذوة الإصرار ، ويذكي روح العزيمة في نفس هذا الفحل ، وأتانه ، فيمضي بكل شجاعة وحزم وإحساس بالمسئولية ، وقد آثر الأتان على نفسه ؛ فيقدمها عليه حفاظًا على حياتها ومايهدد سلامتها ؛ لما رأى مايستوجب ذلك منه . وهي عادة اعتادها فتأصلت في نفسه الأبية .

مع بذل كل هذه الشجاعة والاستبسال وإظهار روح المسئولية وصدق العزيمة في ملاقاة الأهوال كان من الطبيعي أن يصل إلى غايته المنشودة ، وهي (الماء) وينعم بالورد منها بعيدًا عن شوائب التنغيص ومراغات الكدر ، راغدًا في هانئ العيش وطيبه الخصيب . والماء هنا يتعدى ذلك المورد العذب ؛ ليعمَّ معاني الحياة الهانئة الرغيدة ، الزاخرة بطيب العيش ولينه .

فالشاعر يرسم ملامح العيش الكريم الذي يرضاه لأنفسهم كرام الناس وأحرارهم ، والذي لايتأتى إلا ببذل النفس أقصى طاقاتها من التحمل والصبر والثبات على المبدأ عند مدلهمات الخطوب والأهوال ؛ لتنعم بحياة طيبة ، كريمة تليق بمبادئها السامية!! .

ثم يحاول لبيد أن يرتقي بنا إلى مدارج البيان الحسي والمعنوي ، ويعتصر آلام المحنة ، والمكابدة ، ليضعنا أمام لوحة حانية تقطر ألمًا ومعاناة ، وتملؤها مشاهد الإثارة والصراع ، وقوة البأس ، وتحكي ملامح واقع لم يفصح عنه ، ولم تكن بادية في مشاهد ما رسمه في ما سبق . . . !

خامساً : البقرة المسبوعة احتضار فانتصار :

أَفَتِلـــكَ أَم وَحشِـــيَّةٌ مَســـبوعَةٌ خَذَلَت وَهادِيَةُ الصِـــوارِ قِوامُهـــا[1]

(١) شعر المعلقات العشر : ص١٩١-١٩٩ وبشرحه : (وحشية : أي بقرة وحشية ، مسبوعة : أي أكل السبع ولدها ، خذلت : تأخرت عن القطيع وأقامت على ==

==ولدها ، الهادية : المتقدمة التي تهدي الصوار وهو القطيع من البقر ، قوامها : أي تهتدي بأول الصوار ، خنساء : بقرة وحشية ، الفريد : ولد البقرة الوحشية ، لم يرم : لم يبرح ، عرض الشقائق : ناحية أرض غليظة بين رملتين ، طوفها : ذهابها ومجيئها ، بغامها : صوت رقيق رخيم تختلسه اختلاسا ، المعفر : البقرة التي تقطع الرضاع عن ولدها يوما أو يومين ، ثم ترده إذا خافت عليه ، تفعل ذلك مراراً ، قهد : الأبيض من أولاد البقر ، شلوه : بقيته ، الغبس : الذئاب الخفيفة السريعة ، كواسب : تكسب ما تأكل ، لايمن طعامها : لايطعمه أحد فيمنُّ عليها ، الغرة : الغفلة ، أسبل : سال وارتخى ، واكف : سال وقطر ، الديمة : المطر الدائم في سكون ، الخمائل : جمع خميلة وهي رملة تنبت بالشجر الكثيف الملتف ، تسجامها : دائم مطرها ، تجتاف : تدخل جوفه ، أصلا قالصا : أي مرتفعا ، التنبذ : التنحي ، العجوب : المآخير وهو أصل الذنب ، الأنقاء : كثيب الرمل ، الهيام : الرمل اللين ، طريقة المتن : خط من ذنبها إلى عنقها مخالف للونها ، متواتر : متواصل متتابع ، كفر النجوم غمامها : أي غطاها وسترها ، وجه الظلام : أوله الجمانة : اللؤلؤة الصغيرة ، البحري : الغواص ، سل نظامها : أي خيطها ، حسر الظلام : ذهب ، أسفرت : دخلت في الأسفار ، بكرت : غدت بكرة ، الثرى : التراب الندي ، وتزل : تزلق ، أزلامها : قوائمها ، عهلت : العلة : الحيرة والدهشة ، وقيل : الحزن والانهماك ، وقيل : المراح والمجيء من الفزع ، تلدد : تردد ، النهاء : جمع نهي وهو الغدير ، وصعائد : اسم موضع ، سبعا تؤما : أي سبع ليال بأيامهن ، يئست : سليت ونسيت ، أسحق : أخلق ، حالق : الضرع الملآن ، والحالق أيضاً : المرتفع المنضم إلى البطن لقلة لبنه وهو الأقرب ، لم يبله إرضاعها : وفطامها : أي لم يذهب به كثرة إرضاعها ولافطامها ، ولكن أبلاه فقدها ولدها وحزنها عليه ، رز الأنيس : صوت الإنسان الخفي تسمعه من بعيد ، راعها : أفزعها ، عن ظهر غيب : أي من وراء حجاب ، سقامها : هلاكها ، الفرجين : الثغر المخوف ، « تحسب أنها مولى المخافة خلفها وأمامها » : غدت مذعورة لاتعرف منجاها من مهلكها ، يئس : بمعنى علم ، غضفا : كلابا مسترخية آذانها ، دواجن : معلمات ، قافلا : يابسا ، أعصامها : بطونها ، اعتكرت : رجعت ، المدرية : القرون الحادة ، السمهرية : الرماح شبه القرون بها ، لتذودهن : لتردهن ، الذود : الدفع والطرد ، أحم : قضى ، وقدر فهو محموم ، الحتوف حمامها : قضاء الموت ، فتقدت : قتلته مكانه ، كساب : اسم البقرة أو الكلبة التي هاجمت البقرة ، ضرجت : لطخت ، غودر : تُرك ، سحام : اسم كلب).

خَنساءُ ضَيَّعَتِ الفَريرَ فَلَم يَرِم ... عُرضَ الشَقائِقِ طَوفُها وَبُغامُها
لِمُعَفَّرٍ قَهدٍ تَنازَعَ شِلوَهُ ... غُبسٌ كَواسِبُ لا يُمَنُّ طَعامُها
صادَفنَ مِنها غِرَّةً فَأَصَبنَها ... إِنَّ المَنايا لا تَطيشُ سِهامُها
باتَت وَأَسبَلَ واكِفٌ مِن دِيمَةٍ ... يُروي الخَمائِلَ دائِماً تَسجامُها
يَعلو طَريقَةَ مَتنِها مُتَواتِرٌ ... في لَيلَةٍ كَفَرَ النُجومَ غَمامُها
تَجتافُ أَصلاً قالِصاً مُتَنَبِّذاً ... بِعُجوبِ أَنقاءٍ يَميلُ هُيامُها
وَتُضيءُ في وَجهِ الظَلامُ مُنيرَةً ... كَجُمانَةِ البَحرِيِّ سُلَّ نِظامُها
حَتّى إِذا انحَسَرَ الظَلامُ وَأَسفَرَت ... بَكَرَت تَزِلُّ عَنِ الثَرى أَزلامُها
عَلِهَت تَرَدَّدُ في نِهاءِ صَعائِدٍ ... سَبعاً تُؤامـاً كـاملاً أَيّامُها
حَتّى إِذا يَئِسَت وَأَسحَقَ حالِقٌ ... لَم يُبلِهِ إِرضاعُها وَفِطامُها
وَتَوَجَّسَت رِزَّ الأَنيسِ فَراعَها ... عَن ظَهرِ غَيبٍ وَالأَنيسُ سَقامُها
فَغَدَت كِلا الفَرجَينِ تَحسَبُ أَنَّهُ ... مَولى المَخافَةِ خَلفُها وَأَمامُها
حَتّى إِذا يَئِسَ الرُماةُ وَأَرسَلوا ... غُضفاً دَواجِنَ قافِلاً أَعصامُها
فَلَحِقنَ وَاعتَكَرَت لَها مَدرِيَّةٌ ... كَالسَمهَرِيَّةِ حَدُّها وَتَمامُها
لِتَذودَهُنَّ وَأَيقَنَت إِن لَم تَذُد ... أَن قَد أَحَمَّ مَعَ الحُتوفِ حِمامُها
فَتَقَصَّدَت مِنها كَسابِ فَضُرِّجَت ... بِدَمٍ وَغودِرَ في المَكَرِّ سُخامُها

يدخل لبيد هذا المنعطف والحيرة تلفه متسائلا عن حال ناقته تلك التي رسم معالمها عبر تفصيلات أحداث الأتان الواسقة مع فحلها ، ويبدو أن تلك المشاهد لم تبنْ عن مكنونات نفسه الممتلئة المشوبة بعلائق الصراعات ومخلَّفات الألم والمعاناة . تمثلت تلك العلائق في تساؤله باستخدامه ذلك الأسلوب من الاستفهام (أفتلك . . . وأم) ليقرر حالة أخرى هي أكثر دقة

واستجلاءً لما تراكم في طبقات النفس ؛ فتلك المشاهد مع كل ما أظهرته لم توفِّ بعدُ كل مافيها من حسرة وألم وحزازة !! . فعمد إلى (أم) الاستفهامية ومابعدها لتقرر ماجاشت بها نفسه ، ويستلحق بها كل لحظات المعاناة ، وتستودع كل أحزانه ، واعتصار الذات في مشاهد أحداثها الدائرة! .

فيقرر أن معاناة الناقة تلك تمثلها هذه البقرة الوحشية الهادية قطيعها إلى قوام أمرها ، فقد تعقب السبع ولدها وهي في غفلة من أمرها ، فافترسه . وفي قوله : (مسبوعة) ما لخص كثيراً من حديث النفس المفجوعة بهذه الفعلة النكراء ؛ فصوت هذا الوزن (مفعولة) تمثل صورة هذا الغدر ، وتوحي لنا أنها إنما تقصد معنى (مغدورة) ، فبمجرد أن غفلت عنه برهة من لحظات الزمن رأت حجم كل هذا العدوان الغاشم الذي حل بولدها ، ومجاوزة الحد في الطغيان الذي فاق كل التوقعات . .!! .

وفي تقديم وصف هذه الكلاب (غبس) و (كواسب) ما يقذف الروع في جنبات النفس من هيئة تلك الضواري وبشاعتها . وجملة (إن المنايا لاتطيش سهامها) جملة توكيدية تحاول التغلل لهذه النفس المكلومة ، وتثبِّت أركانها المتزعزعة ، وتهدِّئ روعها الهادر ، وتذكِّرها بأن هذا الفقد أمر لامناص منه ، لابحرص حريص ، ولابتفريط مفرِّط! .

وبيان حال البقرة وهي تضيء وجه الظلام في أول ساعات الليل وتشبيهها بالدرة التي انقطع سلك نظامها فتبعثرت ، تصوير بليغ يختزن في أعماقه فيضًا من الإيحاءات ، والدلالات المستكنة في ردهات النفس ، وهي صورة تعيدنا إلى حال التبعثر والتشتت التي ملأت جنبات الطلل ، والديار ، ومَبَارِك النَّعم في أول مطلع القصيدة !! .

ثم بعد ذلك تبدأ مظاهر استيفاء النفس حاجتها ، وتروي شغاف طلبتها ، لتستردَّ عافيتها ، وتحزم أمرها الحاسم . يظهر ذلك في تكرار (حتى) في قوله :

« حَتّى إِذا اِنحَسَرَ الظَلامُ وَأَسفَرَت »

« حَتّى إِذا يَئِسَت وَأَسحَقَ حالِقٌ »

« حَتّى إِذا يَئِسَ الرُّماةُ وَأَرسَلوا »

وكأن الشاعر أراد في هذه المرحلة الحاسمة أن يلقي من خلال مشاهد صراع هذه البقرة الوحشية مع تلك الكلاب الضارية كل ترَّهات النفس ، ويقضي بقضائه عليها على بقاياها العالقة في أخبية الذات المتهدِّمة ، وينفي عنها غبارها المتراكم ؛ لتستعيد نقاءها ويستنفر همتها ويلاقي بها أشد لحظات المواجهة جسارةً ، وحزمًا ، وثباتًا ، لينطلق محلقًا في سماء إثبات الذات واستعادة ألقها وثقتها ؛ ليعتلي بها قباب المجد ، هناك حيث مقامها المعلوم! .

فهذه اللوحة الدامية البليغة تمثل ذروة مخاض الألم المؤذن بانبلاج أضواء الفجر الجديد ، وانقشاع صفحة الظلمة الحالكة التي غشيت جو الشاعر ومحيطه ؛ ليعود الشاعر إلى ناقته التي قضى عليها كل أحداث هذه الرحلة الطويلة المضنية بمشاهد المعاناة ، والبحث عن أسباب الحياة الهانئة الكريمة ، ومامرت به من مرحلة الصراع والألم والقوة ؛ وهو في نشوة عارمة ، ونبرة اعتلاء وافتخار لاتخفى :

فَبِتلكَ إِذ رَقَصَ اللَّوامِعُ بِالضُّحى وَاِجتابَ أَردِيَةَ السَّرابِ إِكامُها

أَقضي اللُّبانَةَ لا أُفَرِّطُ ريبَةً أَو أَن يَلومَ بِحاجَةٍ لُوّامُها

فهذه الناقة الشامخة الشماء هي مركب قضاء حاجات النفس لهذا الشاعر الشامخ الأشم ، ومستودع آلامه وهواجسه وآماله . وأن هذه الهواجس والآلام والآمال تدور حول الموقف الحاسم في صرم القطيعة مع من قطعه ، أوجامل معه بغير صدق ؛ فلا يستحق غير ذلك منه . هذا الذي دعاه إلى أن يستقل راحلته في أول الأمر :

فَاِقطَع لُبانَةَ مَن تَعَرَّضَ وَصلُهُ وَلَشَرُّ واصِلِ خُلَّةٍ صَرّامُها

بعد أن هاجه :

«ما تَذَكَّرُ مِـن نَـوارَ وَقَـد نَـأَت وَتَقَطَّعَـت أَسـبابُها وَرِمامُهـا»

هاهو يعود بعد خمسة وثلاثين بيتًا من نسج بنيان هذه القصيدة المتين . يعود إلى نفس هذه النبرة المعتلية ؛ ونغم فلكها الدائر الثائر ، والثورة على نوار هذه التي تعد مصدر كل تلك المواقف ، حيث يقول :

أَوَلَـم تَكُـن تَـدري نَـوارُ بِـأَنَّني وَصّـالُ عَقـدِ حَبائِـلٍ جَـذّامُها

ليبرهن على صدق عزيمته وثبات أمره على المبدأ ، لاتزعزه المواقف ، ولا احتدام المواجهة وركوب الأهوال .

وماأشبه هذا القول : (وَصّالُ عَقدِ حَبائِلٍ جَذّامُها) بذلك : (وَلَشَرٌّ واصِلِ خُلَّةٍ صَرّامُها) فكلاهما تتقدان من لهيب (نوار) ، وتؤكد لنا أن نوار هذه هي قطب رحى القصيدة ، وجذوة نارها المتوهجة ، وفحوى جذرها ، وصانعة أحداثها ، ولحظاتها الحاسمة !! .

«فعودة الشاعر للحديث عن نوار تمثل موقفًا إنسانيًا صارمًا نحو الآخر ـ كما يفسرها دكتور موسى ربابعة ـ . . إذ تبدأ هذه الذات بتضخيم نفسها في مقابل تقزيمها ونفيها في مقدمة القصيدة إذ إن حضورها كان باهتًا إلى درجة النفي والغياب ! ، وابتداء من البيت الخامس والخمسين تأتي نبرة الخطاب قادرة على تمثيل حضور الذات السافر وتضخمها ؛ وذلك من خلال استعمال ضمير المتكلم (أنني) المقترن بالضمائر الأخرى التي تعود على ذات الشاعر والمقترنة بصيغ المبالغة (وصَّال) (جذَّام) (ترَّاك) وهي صيغ تبرز ذاتية الشاعر ، وتحدد معالم شخصيته .

وإذا كانت هذه الصيغ ترسم معالم هذه الشخصية فإنها من جانب آخر تبرز انتصار الشاعر على (نوار) فهو الذي بيده الوصل الآن ، وهو الذي يملك (القطع) و (الجذم) وهو الذي يمارس (الترك) ، في حين أن (نوار) هي التي

قطعته ، وأصبح مرامها بعيد المنال . وإذا كان الشاعر في مطلع القصيدة قد تحدث عن القطيعة مستخدما أسلوب التجريد (فاقطع لُبَانَة . . . وَاحبُ المُجامِلَ) ، فإنه يتحدث عن ذلك الآن بضمير المتكلم ، وهو (تراك) للمكان ، يتركه إذا لم ير أن بينه وبين ذلك المكان تصالحًا ، وألفة ، وكأنه يؤكد انفصاله عن الطلل المتناثر ؛ ذلك الطلل الذي يرسم مشهد العفاء ، واللا تشاكل ، ويفيض بالخراب والإقفار »[1].

إذن فمشاهد العفاء والتهدم المبثوث في ثنايا حديث المطلع تمثل للشاعر لحظات القوة والانتصار ، واستعادة بُنى الذات المبعثرة . وأن (نوارًا) هذه تعد مصدرًا من مصادر إعادة توازن هذه النفس الشامخة الأبية !! ، ولكن ليس من خلال موالاتها ، وإظهار لوعة العشق والحنين إليها ، وإنما من خلال استنهاض همته للاستعلاء عليها ، والتلويح لها بإشهار سيف القطع والهجر . وهنا تكمن المفارقة !! .

وهنا تبدأ النفس في الاعتلاء ؛ لتحلق في سماء نشوتها ، وتطرب لحديث رغائبها ، وما تستجم به روحها الوثابة الأنِفة ، وتستعيد لحظات اللذائذ ؛ لتستغرق في حديث الخمر :

تَــرّاكُ أَمكِنَــةٍ إذا لَــم أَرضَــها أَو يَعتَلِق بَعضَ النُّفــوسِ حِمامُهــا[2]

بَل أَنتِ لا تَــدرينَ كَــم مِــن لَيلَــةٍ طَلَــقٍ لَذيــذٍ لَهوُهــا وَنِــدامُها

(١) الشعر الجاهلي « مقاربات نصية » : ص٣٩-٤٠ بشيء من التصرف .

(٢) شرح المعلقات العشر ، ص٢٠٠-٢٠٢ ، وبشرحه : (يعتلق : يحتبس ، الندام : المنادمة ، السمر : حديث الليل ، الغاية : راية ينصبها تاجر الخمر ليعرف مكانه ، وافيت : أتيت ، المدامة : الخمر ، عز : ارتفع ، وغلا ، السباء : شراء الخمر ، أغلي : صيرته غالياً ، الأدكن : الزق الأغبر ، العاتق : الخالص الضخم الذي لم يفتح ، وقيل : من صفة الخمر التي عتقت ، الجونة : الخابية ، قدحت : غرقت ، أو مزجت ، فض : كسر ، ختامها : طينها ، باكرت حاجتها : حاجة نفسي من الخمر ، الدجاج : الديكة ، أعلُّ : أشرب مرة بعد مرة) .

قَــد بِــتُّ ســامِرَها وَغايَــةُ تــاجِرٍ ... وافَيــتُ إِذ رُفِعَــت وَعَــزَّ مُــدامُها
أُغلي السِّــباءَ بِكُــلِّ أَدكَــنَ عــاتِقٍ ... أَو جَونَــةٍ قُــدِحَت وَفُــضَّ خِتامُهــا
وَصَــبوحِ صــافِيَةٍ وَجَــذبِ كَرينَــةٍ ... بِمُــوَتَّرٍ تَأتالُــهُ إِبــهامُــــها
بادَرتُ حاجَتَهــا الــدَّجاجَ بِسُــحرَةٍ ... لأُعَــلَّ مِنــها حــينَ هَــبَّ نِيامُهــا

بعد ذلك الحديث الثمل يستوي لبيد متشبع الذات منتشي الروح ؛ ليقول كلمته التي طال مهاده لها وهو ممتطٍ جواده متأهب للذَّود عن حمى القبلية ، لايفارق السلاح وشاحه :

وَلَقَد حَمَيتُ الــحَــيَّ تَحمِلُ شِــكَّتي ... فُرُطٌ وَشاحِيَ إِذ غَــدَوتُ لِجامُهــا[1]
فَعَلَــوتُ مُرتَقِبــاً عَلــى ذي هَبــوَةٍ ... حَــــرِجٍ إِلى أَعلامِهِــــنَّ قَتامُهــــا
حَتّــى إِذا أَلقَــت يَــداً في كــافِرٍ ... وَأَجَــنَّ عَــوراتِ الثَّغــورِ ظَلامُهــا
أَسهَلتُ وَانتَصَــبَت كَجَــذعِ مُنيفَــةٍ ... جَــرداءَ يَحصَــرُ دونَهــا جُرّامُهــا
رَفَّعتُهــا طَــرَدَ النعــامِ وَشَــلَّهُ ... حَتّى إِذا سَــخِنَت وَخَــفَّ عِظامُهــا
قَلِقَــت رِحالَتُهــا وَأَســبَلَ نَحرُهــا ... وَابتَلَّ مِــن زَبَــدِ الحَمــيمِ حِزامُهــا

(١) شرح المعلقات العشر ، ٢٠٣- ٢٠٥وبشرحه : (حميت الحي : منعته أن يصاب ، الشكة : السلاح ، فرط : فرس متقدمة سريعة ، شاحي لجامها : أي كان أحد الفرسان يتوشح اللجام ليكون قريبا منه ساعة الفزع ، مرتقبا : يرقب أصحابه ، الهبوة : الغيرة ، الأعلام : الجبال ، القتام : الغبار ، كافر : الليل لكفره الأشياء وسترها ، أجن : ستر ، عورات الثغور : المواضع التي تؤتى المخافة منها ، أسهلت : نزلت من مرقبتي إلى سهل ، انتصبت : نصبت عنقها من النشاط ، منيفة : نخلة طويلة مرتفعة ، جرداء : قليلة السعف ، الحصر : الضيق والكلال ، جرامها : قطاعها ، رفعتها : حثثتها في السير وطردتها ، طرد النعام : عدوه ، سخنت : حمت ، خف عظامها : أسرعت ، قلقت : اضطربت وأسرعت ، الرحالة : سرج من جلود الغنم وهو أخف للعَدْو ، أسبل : ابتل ، الحميم : العرق ، ترقى : تصعد ، تطعن في العنان : تبسط في السير ، تنتحبي : تقصدي ، أجدَّ : اجتهد ، الحمامة : القطاة).

تَرقى وَتَطعَــنُ في العِنــانِ وَتَنتَحــي وِردَ الــحَمــامَــةِ إِذ أَجَدَّ حَمامُهــا

إلى آخر ما قال . . .

ليصل إلى أعلى سلطانه ، ويدخل في حضرة فخامة القبيلة ، ويبدأ الخطاب معها بما يوائمها من مكانة ، مستخدما خطاب الجمع والتعظيم :

إِنّا إِذا الِتَقَتِ الــمَجــامِــعُ لَم يَزَل مِنّــا لِــزازُ عَظيمَــةٍ جَشّــامُها

وينثال عليها بالثناء انثيالاً إلى أن تختتم القصيدة بتلك الروح الفارعة في سماء الأنفة ، والمجد ، والسلطان .

والذي يهمني في مسار البحث في هذه المعلقة الطويلة الشامخة : البنيان . إن العفاء والاندراس والتشعث البادي في ملامح ذلك المكان في حديث المطلع ، كان وراءه تشتت في مسارت الذات الأبية الأنفة للشاعر ، حاول لملمتها من خلال رحلته الممتدة المتنقلة في مسارتها ومستوياتها المتصاعدة ؛ لتستوي في آخر المطاف بعد حكاية البقرة المسبوعة . وأقوى تلك البواعث للملمتها واستجماع قواها وحصر متناثر أهوائها هو حديثه المتهيج من تذكر (نوار) وما أدراك مانوار؟! .

القصيدة الثانية :

مطلعها : [1]

أَلَم تُلمِــم عَلــى الــدِّمَنِ الخَــوالي لِسَــلمى بِالــمَــــذانِبِ فَالقُفــالِ

(١) ديوان لبيد : ص٧٢-٧٥ وبحاشيته : (تلمم : تقف المذانب : موضع ، القفال : موضع ، النعاف : رءوس الأودية ، قوّ : موضع ، خوالد : باقية خالدة ، جنبا صوأر : مكان ، العرار : صوت ذكر النعام ، العزف : صوت الجن ، الحي الحلال : المقيمون في حللهم ومنازلهم ، يقال حي حلال : أي كثير عظيم ، الخيط : القطيع من النعام ، خواضب : قد خضبها الربيع وصبغ أطراف ريشها ، مؤلفات : ألفت ذلك الموضع ، رئالها : فراخها ، الأورق : الرماد ، وقيل الأسود تنفذه شعرة بيضاء ، الإفال : صغار الإبل ، أجدّ فيها : أي اتخذت أحبية جديدة ، الأخبيبة : المكانس ، النوال : الصواب . ==

فَجَنَبَـــي صَـــوأَرٍ فَنعـــافِ قَـــوٍّ ... خَوالِـــدَ مـــا تَحَـــدَّثُ بِـــالزَّوالِ
تَحَمَّـــلَ أَهلُهـــا إِلاَّ عِـــرارًا ... وَعَزفًـــا بَعـــدَ أَحيـــاءٍ حِـــلالِ
وَخَيطًـــا مِـــن خَواضِـــبَ مُؤلِفـــاتٍ ... كَـــأَنَّ رِئالَهـــا أُرقُ الإِفـــالِ
تَحَمَّـــلَ أَهلُهـــا وَأَجَـــدَّ فيهـــا ... نِعـــاجُ الصِّـــيفِ أَخبِيَـــةَ الظِّـــلالِ
وَقَفتُ بِهِـــنَّ حَتّـــى قـــالَ صَـــحبي ... جَزِعـــتَ وَلَـــيسَ ذَلِـــكَ بِـــالنَّوالِ
كَـــأَنَّ دُموعَـــهُ غَربـــا سُـــناةٍ ... يُحيلونَ السِّـــجالَ عَلـــى السِّـــجالِ
إِذا أَروَوا بِهـــا زَرعًـــا وَقَضـــبًا ... أَمالوهـــا عَلـــى خـــورٍ طِـــوالِ
تَمَنّـــى أَن تُلاقِـــيَ آلَ سَـــلمى ... بِخَطمَةَ وَالـــمُنـــى طُـــرُقُ الضَّـــلالِ
وَهَـــل يَشـــتاقُ مِثلُـــكَ مِـــن دِيـــارٍ ... دَوارِسَ بَـــينَ تُخـــتِمَ وَالـــخِـــلالِ

استهل الشاعر قصيدته بنُشدان نفسه مجردًا منها نفسًا أخرى يخاطبها على وجه مشوب بأنفاس الحيرة والاستنكار ؛ وذلك عند مروره على دِمَن الأطلال البالية من ديار محبوبته سلمى التي تحمَّل[1] أهلها عنها ، فخلت هذه الديار من كل مظاهر الحياة الآنسة ، وطيب العيش الرغيد!! .

فلم يعد بها من ذلك شيء سوى صوت عزيف الجن ، وبقايا من أصوات النعام ، وقطعانها المخضبة من أثر ما كانت عليه تلك الديار من الربيع ورعيه ، معها فراخها الأرق (الرَّمادية) تشبه صغار الإبل . فقد رحل أهلها عنها ،

== وقيل : الشأن والهمة ، الغربان : الدلوان ، سناة : سقاة ، السجال : الدلاء ، القضب : الرطبة ، رووا : سقوا ، الخور : المقصود بها : النخيل ، القرون : الدفعات من العرق والماء ، تختم والخلال : مكانان) .

(١) اللسان (حمل) : احْتَمَل القومُ وتَحَمَّلوا : ذهبوا وارتحلوا . والحَمُولة ، بالفتح : الإبل التي تَحْمِل . قال ابن سيده : الحَمُولة : كل ما احْتَمَل عليه الحَيُّ من بعير أَو حمار أَو غير ذلك ، سواء كانت عليها أَثقال أَو لم تكن ، وفَعُول تدخله الهاء إِذا كان بمعنى مفعول به .

وسكنتها نعاج الصيف واتخذت ظلالها مكانس لها ، بعد أن كانت تلك المعاهد عامرة بالأقوام العظيمة المقيمين بها .

يقف الشاعر بها طويلاً حدِّ الجزع ، ويبكي بكاءً منهمل الدمع على تلك الأيام الخوالي ، فينتقل من خطاب المتكلم إلى خطاب الغيبة عن طريق الالتفات ، وكأنها لفتة مذهول من وقع مابه من حر الأسى ، راسمًا بذلك صورة لغزارة الدمع الذي أسبله على تذكُّر تلك المنازل والديار ، والأيام التي مضت فيها ؛ هذه الصورة لاتخرج عن دائرة المبالغة الشديدة في سكب الدموع ، وغزارة انهمالها ؛ حيث شبه تتابع دموعه بالانهمال ، وهو يقف بتلك الديار بتتابع سقاء الدلاء من البئر على بعضها البعض لتروي بها الزروع والنباتات . ولم يقف عند ذلك الحد بل ذكر أنهم بعد الفراغ من ذلك أمالوها على أحواض النخل لتستكمل بها الريَّ .

وهذه الصورة فيها خروج ظاهر عن سياق مألوف العادة ؛ فهي تستحث الخاطر بالبحث ، والتفتيش في ما ورائها أو ما تطويه في داخلها من خبيء المعنى؟! .

ثم بعد ذلك عاد ليعرج مرة أخرى بالاستفهام التقريري ، الذي لايخلو من إنكار على النفس من شكوى الصبابة والالتياع ، والتهالك على تلك الديار البالية الدوارس . والخروج عن مألوف العادة في الصورة جاء عن طريق المبالغة الشديدة في إسبال الدمع وغزارته ، فلم يكتف الشاعر بصورة تتابُع الدلاء من البئر ، بل أضاف إلى ذلك سقي الزروع والنبات ، ثم أتْبع ذلك ملء أحواض النخل ! .

لاشك أن وراء هذه المبالغة دافعًا من النفس مستحثًّا قد دفعه ؛ لاسيما وأن تلك الديار كانت (خوالد . . ماتحدث بالزوال) ! . فهل ذلك الدافع ناتج عن هول الرحيل ، وصدمة الفراق؟ . وهو الذي حدا بالشاعر أن يسبغ على تلك

الديار شيئًا من مظاهر الوحشة المتمثلة في أصوات عزيف الجن ، وبقايا النعام مع فراخها ، وحركة النعاج وهي تتخذ من ظلال تلك البيت مكانس لها ؟! .

يبدو أن هذه المظاهر تثير في الشاعر جوًّا من حالة الهياج والذكرى ، وتحرك فيه شجو النفس ، فتدفعه إلى البوح بشكل مفرط ؛ وهذا على مايبدو ماصنع تلك الصورة المفرطة ! .

والذي يظهر من خلال أسلوب المطلع أن هذه القصيدة قد انطوت على العديد من معاني النفس وحاجاتها ؛ فهي تتراحب وتتعاظم في وصف المشاهد والآثار ، وعرض دقائقها وتفاصيلها على امتداد صورها وأغراضها ، فأول ما ألاحظه في هذا الأسلوب وصفه لديار سلمى بعد أن ارتحلت وأهلها عن تلك الديار ؛ حين قال :

تَحَمَّلَ أَهلُها إلاَّ عِراراً وَعَزفاً بَعدَ أَحياءٍ حِلالِ
وَخَيطاً مِن خَواضِبَ مُؤلِفاتٍ كَأَنَّ رِئالَها أُرقُ الإِفالِ
تَحَمَّلَ أَهلُها وَأَجَدَّ فيها نِعاجُ الصِّيفِ أَخبِيَةَ الظِّلالِ

فجاء الوصف لها مشتملاً على دقائق وصغائر لايلتفت إليها عادة إلا لمَّاح متأمل ، صاحب نظر دقيق متقصي ؛ فلم يكتف بوصف بقايا أصوات ذكور النعام ، وصوت عزيف الجن في تلك الديار ، بعد ارتحال أهل محبوبته سلمى ؛ وكان يمكن أن يكتفى بذلك الوصف ولايخلّ بشيء من معالم الصورة !! . بل راح ينقل مشاهد قطعان ذلكم النعام ، ويدقق في تفاصيل صورتها وهي مُحْمَرَّة السيقان بفعل ماكانت ترعاه من الخضرة والربيع ، فغدت بعد ذلك أثرًا بعد عين .

ثمَّ لم يقف عند ذلك الحد من بث مشاهد آثار الحياة في تلكم الديار ، وما خلَّفته من الوحشة ، المتمثلة في هيئة مشاهد قطعان النعام المخضَّب ، الذي يجوب مساكنها ، وأطلال رسومها وازداد على ذلك بتقصي صورة فراخها

الأرق ، التي تشبه صغار الأبل ، (والأرق من الألوان : الأسود تنفذه شعرة بيضاء . قال الأصمعي : قلت لأعرابي مالون الأورق؟ فقال : لون رماد الرث ، قال الأصمعي : وهو أسمج الألون !! [1]) .

ولا أدري لماذا حرص الشاعر كل هذا الحرص على أن ينقل لنا وصف مشاهد فراخ النعام ، وأن يبرز لونها الأورق السامج ، وكان بوسعه أن يعدل عن ذلك كله ويمضي إلى أغراضه التي يؤمها ؟!! .

في ظني أن صورة مشاهد النعام بهذا الحال ، لاتوحي في النفس سوى بمظاهر الوحشة ، وجوٍّ من الفزع والرهبة !! .

ثمَّ ترى الشاعر يعود ليبِّين تغير حال تلك الديار والمساكن ، ويشبِّه انقلاب أهلها وتبدلهم بنعاج الصيف ؛ وهي تتخذ من ظلال مساكنهم بيوتًا تتفيَّأ بها .

وهذه الصورة أيضًا وإن كانت تصف قطعان الظباء وهي خابية في منازل القوم وتستظل في ظلال مساكنهم ، إلا أنها لا توحي بمظاهر الأُنْس والبهجة ، بل هي على خلاف ذلك ـ فيما يظهر لي ـ خاصة في نفس ذلك الإنسان الجاهلي الذي أَلِف الظباء وهي طالقة في فيافي الصحراء ومفازتها .

فهذه المشاهد على تتابُع أحوالها ، وذكر تفاصيلها تطوي وراءها من معاني النفس وخطراتها ماتطوي ، وكأنها ترمز إلى زوال حال من العيش منعَّم رغيد ، وانقلابه ، وبقاء آثار شواهده دالة عليه !! وهو مايشي إليه معنى البيت الذي يصف مرحلة الانتقال لوصف الراحلة ، حين تتحضَّره الهموم وترخي سدولها عليه :

وَكُنتُ إِذا الـهُمـومُ تَحَضَّـرَتني وَضَـنَّت خُلَّـةٌ بَعـدَ الوِصـالِ

فهي تفيد أن هنا خلَّة هجرٍ ، وحال قطيعةٍ ، بعد عهد تلاقٍ ، ووصال !! .

---

(١) ديوان لبيد : ص٧٣ .

هذا الأسلوب في عرض دقائق الأحداث وتفاصيلها نراه حاضرًا في مجريات القصيدة على اختلاف معانيها ، وأغراضها ؛ فنراه ماثلاً في وصف مشاهد الراحلة حين يقول :[1]

وَكُنتُ إِذا الـهُمـومُ تَحَضَّـرَتني وَضَـنَّت خُلَّـةٌ بَعـدَ الوِصـالِ
صَرَمتُ حِبالَهـا وَصَـدَدتُ عَنـها بِناجِيَـةٍ تَجِـلُّ عَـنِ الكَـلالِ

(١) ديوان لبيد : ص٧٥-٨٠ وبشرحة (: ناجية : ناقة مسرعة تنجو ، حبالها : مواصلتها ، تجل : تعظم عنه أي لاتعيي ، ولاتدق ، ولاتُحض على السفر وطول السير ، عذافرة : ضخمة قوية شديدة ، تقمص : تنزو به ، بالردافي : راكبها الذي يرتدف خلف الراكب ، تخونها : تنقصها وتذهب بلحمها ، العقر : القصر ، الهاجري : بناء من هجر ، أشباه : اللبن والآجر ، مثال : قالب اللبن ، الأخنس : الثور ارتداد في أنفه ، ناشط : يخرج من بلد إلى بلد ، البرقة : الموضع يخلط ترابه أو رمله حصى ، صوراه : قطيع بقر الوحش ، تضيفته : نزلت به سحابة تنطف بالماء نزلت به منزل الضيف ، نطوف سحابة تسيل قليلاً ، قاضي نذور : بات مكبا كأنه يصلي صلاة يقضي بها نذرا ، غرقد : شجر ، خضل : أخضر نديّ ، ضال : سدْر البِّر ، وَكَف : قطر ، القرا : الظهر ، الروق : القرن ، الغصون : غصون الشجر التي تحتها الثور ، الهالكي : الصيقل ، النقب : الصدأ ، الإشراق : طلوع الشمس ، الغضف : الكلاب التي آذانها إلى الوراء ، أو آذانها مسترخية ، ضواريها : صوائدها التي ضريت على الصيد ، جال : فرَّ ، الحفيظة : الغضب ، غادر : ترك ، ملحما : كلب يطعم اللحم ، وقيل : المقيم في موضع لايبرحه فهو ثابت في القتال ، الفرائض : ماحاذى المرفق من الجنب ، طحال : اسم كلب ، يشك : يطعن ، صفاحها : جنوبها ، شزرا : جانبا على أي شقيه : السراد : السير الذي يخصف به ، النقال : الرقاع ، مخلوجة : طعنة غير مستقيمة ، تحسر : تنكشف ، الغمرات : كربات القتال ، المراهن : الفرس الذي راهن به القوم ، ذو الجلال : ذو الصون ، الطية : وجهك الذي تريد ، فلج : بلد ، بين صون واعتدال : بين كف من شدة وبين سريع منه يستخرجه . . . ، يبتدل مرة ويصون آخرى ، الخمائل : الرمال فيها شجر ، الدهنا : برية ، الفيال : لعبة كانوا يلعبونها يجمعون ترابا ويخبئون فيه خبءًا ويقولون لصاحبه أي الجانبين هو؟ يقتري : يتتبع ، الحومان من الأرض : أماكن غلاظ منقادة»

عُـــذافِرَةٌ تَقَمَّـــصُ بِـــالرُّدافى ... تَخوَّنَهـــا نُـــزولي وَارتِحـــالي
كَعَقـــرِ الـــهَـــاجِرِيِّ إذا ابتَنـــاهُ ... بِأَشـــباهٍ حُـــذينَ عَلـــى مِثـــالِ
كَـــأَخنَسَ ناشِـــطٍ جـــادَت عَلَيـــهِ ... بِبُرقَـــةِ واحِـــفٍ إِحـــدى اللَّيـــالي
أَضَـــلَّ صِـــوارَهُ وَتَضَـــيَّفَتهُ ... نَطـــوفٌ أَمرُهـــا بِيَـــدِ الشَّـــمالِ
فَبـــاتَ كَأَنَـــهُ قاضـــي نُـــذورٍ ... يَلـــوذُ بِغَرقَـــدٍ خَضِـــلٍ وَضـــالِ
إِذا وَكَـــفَ الغُصـــونُ عَلـــى قَـــراهُ ... أَدارَ الـــرَّوقَ حـــالاً بَعـــدَ حـــالِ
جُنـــوحَ الـــهَالِكيِّ عَلـــى يَدَيـــهِ ... مُكِبّـــاً يَجتَلـــي نُقَـــبَ النِّصـــالِ
فَبـــاكَرَهُ مَـــعَ الإِشـــراقِ غُضـــفٌ ... ضَـــواريها تَخُـــبُّ مَـــعَ الرِّجـــالِ
فَجـــالَ وَلَـــم يَجُـــل جُبنـــاً وَلَكِـــن ... تَعَـــرُّضَ ذي الـــحَفيظَـــةِ لِلقِتـــالِ
فَغـــادَرَ مُلحَمـــاً وَعَـــدَلنَ عَنـــهُ ... وَقَد خَضَبَ الفَـــرائِصَ مِـــن طِحـــالِ
يَشُـــكُّ صِـــفاحَها بِـــالرَّوقِ شَـــزراً ... كَما خَـــرَجَ السِّـــرادُ مِـــنَ النِّقـــالِ
وَوَلّـــى تَحسُّـــرُ الغَمَـــراتُ عَنـــهُ ... كَما مَرَّ الـــمُـــراهِـــنُ ذو الـــجِلالِ
وَوَلّـــى عامِـــداً لِطِيـــاتِ فَلـــجٍ ... يُـــراوِحُ بَـــينَ صَـــونٍ وَابتِـــذالِ
تَشُـــقُّ خَمائِـــلَ الـــدَّهنا يَـــداهُ ... كَمـــا لَعِـــبَ الـــمُقـــامِرُ بِالفِيـــالِ
وَأَصبَحَ يَقتَري الـــحَـــومانَ فَـــرداً ... كَنَصلِ السَّـــيفِ حـــودِثَ بِالصِّـــقالِ

تبدأ من هنا مسيرة وصف الراحلة بتصويره لها حين شبه هذه الناقة في اكتمال بنيتها وتناسق جسمها وفراهتها بالقصر المتَّخذ من لَبِنٍ وآجُر وقد تفنن فيه بنَّاء معماري مشهور ، أقامه على أحدث طراز قويم .

هذا التشبيه هو صورة موجزة بإجمال لعرض مفصَّل متسع . وقبل الشروع في تفاصيل الرحلة وكشف خبايا معانيها أود أن ألفت إلى المدخل الذي أفضى بالشاعر إلى سلوك هذا الطريق من البيان والتفصيل ، وهو قوله (وكُنتُ إذا الهُمومُ تَحَضَّرَتني وَضَنَّت خُلَّةٌ بَعدَ الوِصالِ) فجعل حال الهموم التي غشيته

وتبدل حال الوصل بالقطع والهجران سببًا دافعا لهذا الرحلة التي تنطلق معالمها من حكاية الثور الأخنس الناشط ، الذي يخرج من بلد إلى بلد ، وقد أضاع بقره ونزلت به سحابة تنطف عليه الماء ، هذا الماء جهته ناحية الشمال وجهة الشمال كناية عن معاني التفريط والضياع . فبات هذا الثور مكبًّا على وجهه وكأنه يصلي صلاة يقضي بها نذرًا فهو منكب بين شجر ملتف متكسر ، وسدر بري يقطر من أغصانها الماء ، إذا قطر هذا الماء على ظهره أدار قرنه مرة بعد مرة ، يشبه في تحركه انصباب الصيقل على السيف حين يجلو صداه ليصير أشهب اللون ، فبينما هو كذلك ، إذ باكره مع طلوع الشمس كلاب ضوارٍ تخبُّ السير نحوه وآذانها مسترخية إلى الوراء ، فعاجل بالهرب منها ، ولكنه احترس وبيَّن أن هذا الهرب لم يكن جُبْنا منه ، وإنما هو فرار الشجعان الحكماء الذين تعرضوا فجأة لما يثير غضبهم ، وعندهم من الضروريات مايستوجب المحافظة عليها ، وعدم المساومة بها ؛ فتركوا المواجهة مع تلك الكلاب الضارية .

وقد أشكل عليَّ موضع قوله :[1]

يَشُكُّ صِفاحَها بِالرَّوقِ شَزراً كَما خَرَجَ السِّرادُ مِنَ النِّقالِ

كيف لهذا الثور أن يفرَّ عن لقاء الكلاب ويترك مواجهتها ، ثم يشكُّ صفاحها بالروق؟!! .

يبدو أن هيئة النظرة في قوله (شزرًا) تفك سرَّ هذا الإشكال . فالنظر شزرا : نَظَرٌ فيه إعراض كنظر المعادي المبغض ، وقيل : هو نظر على غير استواء بِمؤْخِرِ العين ، وقيل : هو النظر عن يمين وشمال . . . فكأنه شبه هذا النظر المبغض الحاد وهو يتحول عن تلك الكلاب بشك قرنه النافذ ، الذي يشبه حديدة المخراز التي تنفذ في جلد النعال الخَلِق المرقع . فجعل حدة نفاذ البصر كنفاذ حديدة المخراز في النعل . وفي هذا تكون في هذه الصورة نوع

(١) اللسان : (شزر) .

من المبالغة الدالة على حجم الغيظ المالئ قلب هذا الثور ، يحاول أن ينفثه من خلال صوره الخارقة ! .

ثم يمضي هذا الثور موليًّا شطر غايته التي يريد ، وقد انجلت عنه هول الكربات ، يشبه في مروره الفرس الذي راهن عليه القوم ؛ فهو يسير في هيبة وجلال حيث (تَشُقُّ خَمائِلَ الدَّهنا يَداهُ) ، فتشبه في حلتها تلك بحال من يلعب بالمفايل ، ويقامر بها . وأصبح يتتبع ما استغلظ من بساط الأرض ، ويرتقيها بخفة وسرعة ، والبياض يكسو لونه ، يشبه في ذلك السيف حين يصقل وتنجلي شوائبه . ولايخفى مافي هذه الصور المتتابعة مما يرمز إلى معاني التباهي ، والتبختر ، والفخار .

والشاعر في عرضه لهذه الجزئية من الأحداث المتتابعة لوصف ناقته نراه يعتمد على الصور التشبيهية في بث عناصر أفكاره ومعانية اعتمادا كبيراً ، فلايكاد يستغني عنه . فقد استهل ذلك الوصف ودخل إليه عن طريق التشبيه (كَعَقرِ الهاجِرِيّ) ثم أتبع ذلك بصورة تشبيهية أخرى (كَأَخنَسَ ناشِطٍ) ويمتد في عرض تلك الأحداث ، ثم نرى ذلك الاعتماد يهيمن ويتتابع على أسلوب عرض جزئية يسيرة من مشاهد الثور ؛ وذلك حال خروجه وابتعاده عن ملاقاة تلك الكلاب (كَما خَرَجَ السِّرادُ مِنَ النِّقالِ) ثم يتبعها صورة أخرى (كَما مَرَّ المُراهِنُ ذو الجِلالِ) وهو يصف حال الثور بعد أن ترك مواجهة الكلاب ، ويمم صوب حاجته فيصف تبختره وزهوه في ذلك (كَما لَعِبَ المُقامِرُ بِالفِيالِ) ثم يتبعها بـ (كَنَصلِ السَّيفِ حودِثَ بِالصِّقالِ) .

هذه الهيمنة الظاهرة ، والاعتماد على الصورة البيانية التشبيهية من الشاعر لبث معانيه وأفكاره في مناحي البيان تثير ذات الأسئلة التي أثيرت في دراسة مطالع أبي ذؤيب ؛ من أن الأسلوب الذي يستهل به الشاعر مفتتح قصيدته واعتماده على الأدوات البيانية المفصحة عن المعاني وطرق تأديتها لها تظل هي مهيمنة على مَلكة البيان لدى الشاعر ، فينحبس في حدود معالمها ، وهي هنا بمقام التأكيد على تلك الفكرة وتثبيتها .

وهنا يعود الشاعر على الرغم كل ذلك الامتداد في عرض سلسلة الأحداث وتتابعها ، وهو يشبه حال ناقته يعود ليدخل في سلسلة ثانية من عرض الأحداث المثيرة ، وكأن كل تلك المشاهد لم تشف مافي النفس من حاجات والإبانة عمَّا يدور بخلجاتها من لواعج !! ، فيبدأ بقصة أخرى تستكمل التي بدأ بها ، وتحيط بجوانبها المبهمة ، حيث يقول :[1]

أَذَلِـــــكَ أَم عِراقِـــــيٌّ شَـــــتيمٌ أَرَنَّ عَلى نَحـــائِصَ كَالـــمَقـــالـــــي

(١) ديوان لبيد : ص٨١-٨٨ وبشرحه : (عراقي : يأتي من العراق ، شتيم : كريه الوجه كأنه كل من يراه يشتمه ، أرنَّ : صاح ونهق ، النحائص : اللواتي ليس معهن أولاد ولابهن أولاد ، المقالي : واحدها قلة وهي العصي التي تكون بأيدي الصبيان يلعبون بها ، نفى جحشانها : أطارها عنها ، الخليط : المخالط ، الجماد : أرض صلبة غلاظ في ارتفاع ، مايلام على الزيال : لايلام على أن لايكون معه فحل ، والزيال : المفارقة ، أمكنها : أي كدها بحافره ونابه ، الصلبين : أرض أقام بها ، اعتذرت عليه : قلت عليه ، النطاف : المياه قلت أو كثرت ، السمال : الماء القليل ، مناهل : مياه ، أجنات : متغيرات ، حاجة : بلد ، الدوالي : الدلاء ، النجاد : كل مرتفع من الأرض ، شيعتها : شجعتها ، هواديها : أوائلها ، النضي : السهم ، المغالي : الرجل المرامي ، الورد السير الشديد ، تقلص غيظان : تقصر إذ سارها من سرعة سيره فكأنها تُطوى ، يبذ : يغلب ، الخمس : أن يرد الماء اليوم ثم يرده في اليوم الخامس ، يجد سحيله : يقطع صوته ، يتير : يتبع تارة بعد تارة ، الخناف : إذا أمال رأسها في إحدى شقيها من نشاط ، الزمال : العدو في جانب ، تقاذفته : أصابته كأسا بعد كأس ، مشعشعة : ممزوجة ، مغروض : ماء طري قريب عهد بسحاب ، زلال : صاف عذب سهل الدخول ، أحوذ : جمع وضم جانبيها : يأتي مرة من هذا الجانب ، ومرة من الجانب الآخر ، العوج : الطوال ، أراد قوائمها ، سرادقا : غبارًا كأنه سرادق ، يصفق : يميل ، العراك : الجماعة ، لم يذدها : لم يحبسها ، الدخال : أن يشرب بعضها ثم يرجع فيزاحم الذي على الماء ، نغص : أن ينغص عليها الشرب ، يفرج : يثور بسنابكه الماء ، السنابك : مقدم الحوافر ، يروع : يحرك ، غلال : الغلة حرارة العطش ، شريب : ماء مشروب ، يرجِّع : يردِّد صوته بعدما شرب ، الصوى : الأعلام ، مهضمات : قِصاب أُخذت رطبات فهضمن ، يجبُن : يخرجن من صدره ، قصب العوالي : بلاد عالية ، وقيل : أراد بلعومه ومخرج نفَسه).

نَفـــى جحشـــانَها بجمـــادِ قَـــوٍّ ... خَلـــيطٌ مـــا يُـــلامُ عَلـــى الزِّيـــالِ
وَأَمكَنَهـــا مِـــنَ الصُّـــلبَينِ حَتّـــى ... تَبَيَّنَـــتِ المخـــاضُ مِـــنَ الحِيـــالِ
شُهورَ الصَّـــيفِ وَاعتَـــذَرَت عَلَيـــهِ ... نِطـــافُ الشِّـــيِّطَينِ مِـــنَ السِّـــمالِ
وَذَكَّرَهـــا مَناهِـــلَ آجِنـــاتٍ ... بِحاجَـــةَ لا تُنَـــزَّحُ بِالـــدَوالي
وَأَقبَلَهـــا النِّجـــادَ وَشَـــيَّعَتها ... هَواديهـــا كَأَنضِـــيَةِ الـــمُغـــالـــي
لِـــورِدٍ تَقلِـــصُ الغيطـــانُ عَنـــهُ ... يَبُـــذُّ مَفـــازَةَ الخِمـــسِ الكَمـــالِ
يُجِـــدُّ سَـــحيلَهُ وَيُـــتيرُ فيـــهِ ... وَيُتبِعُهـــا خِنافـــاً في زِمـــالِ
كَـــأَنَّ سَـــحيلَهُ شَـــكوى رَئـــيسٍ ... يُحـــاذِرُ مِـــن سَـــرايا وَاغتِيـــالِ
تَبَكِّـــيَ شـــارِبٍ أَســـرَت عَلَيـــهِ ... عَتيـــقُ البابِلِيَّـــةِ في القِـــلالِ
تَـــذَكَّرَ شَـــجوَهُ وَتَقاذَفَتـــهُ ... مُشَعشَـــعَةٌ بِمَغـــروضٍ زُلالِ
إِذا اجتَمَعَـــت وَأَحـــوَذَ جانِبَيهـــا ... وَأَورَدَهـــا عَلـــى عـــوجٍ طِـــوالِ
رَفَعـــنَ سُـــرادِقاً في يَـــومِ ريـــحٍ ... يُصَـــفِّقُ بَـــينَ مَيـــلٍ وَاعتِـــدالِ
فَأَورَدَهـــا العِـــراكَ وَلَـــم يَـــذُدها ... وَلَم يُشـــفِق عَلـــى نَغَـــصِ الـــدِّخالِ
يُفَـــرِّجُ بِالسَّـــنابِكِ عَـــن شَـــريبٍ ... يَـــروعُ قُلـــوبَ أَجـــوافٍ غِـــلالِ
يُرَجِّـــعُ في الصُّـــوى بِمُهَضَّـــماتٍ ... يَجُبنَ الصَّدرَ مِـــن قَصَـــبِ العَـــوالي

يدخل لبيد منعطفه الثالث في وصف هذه الناقة وقد لفَّته أجواء من الحيرة والشك : هل ذلك الثور الأخنس الناشط هو الذي يشبه ناقته وصروف أحوالها؟ أم حمار قادم من ناحية العراق ، كريه المنظر ، يشتمه كل من رآه؟! هذا الحمار قد أتى على بعض أُتنُه التي ليس لها ولد ، فقد نفاهم بأرض صلبة (جماد قوٍّ) كي يخلو به المكان ، هذا الموضع هو ذات الموضع الذي بكى فيه الشاعر محبوبته سلمى ، وتذكَّر أطلال منازلها ، وديارها؟! .

فَجَنَبَـــي صَـــوأَرٍ فَنعـــافِ قَـــوٍّ خَوالِـــدَ مـــا تَحَـــدَّثُ بِـــالزَّوالِ

هذا الحمار ظلَّ يأتي أتانه حتى اعتزلت عنه التي حملت من التي لم تحمل . وبينما الأمر كذلك إذ شح الماء بأرضه وانقطع ، فأصبح يذكر أُتُنه بمناهل للماء قد تغيرت وتحتاج إلى الدلاء لنزعها ، فأقبلت نحوها سائرة مابين نجاد ووهاد ، ويصف خطو السابقات نحو تلك المناهل ويشبهها برمية السهم ؛ فهي تسير سيرًا شديدًا سريعًا تغلب قطع هذه المفازة المهلكة ، فظل هذا الحمار يتابعها تارة بعد أخرى ، وهو يجدُّ بصهيل صوته ويسرع في العَدْو ، ويأتي القطيع مع جوانبه .

ثم يقف الشاعر وقفة بيانية متأملة حين يشبه سحيل هذا الحمار وصهيله ، بصوت رئيس قوم بدأ يشتمُّ رائحة الغدر والخيانة من حوله ، ويحاذر الوقوع فيها ؛ فيقول :

كَـــأَنَّ سَـــحيلَهُ شَـــكوى رَئـــيسٍ يُحـــاذِرُ مِـــن سَـــرايا وَاغتِيـــالِ

لا أستيقن فحوى هذه الصورة لكني أشعر أن وراءها مغزىً مهمًّا ، وتُكِنُّ في باطنها معنى عميقاً ، هذا المعنى يحوم حول أحاسيس القصيدة وأصدائها ، ولايخرج عن إطار شعورها العام .

فهناك دلالات صالحة لأن تكون أصداء لفحوى هذه الصورة هذه الدلالات تظهر في آخر أبيات القصيدة ، وهو يكشف عن لثام جوهرها حين يقول :

هُمُ قَـــومي وَقَـــد أَنكَـــرتُ مِنـــهُم شَـــمائِلَ بُـــدِّلوها مِـــن شِـــمالي
يُغـــارُ عَلـــى البَـــرِيِّ بِغَـــيرِ ظُلـــمٍ يُفضَـــحُ ذو الأَمانَـــةِ وَالـــدَّلالِ
وَأَسرَعَ في الفَـــواحِشِ كُـــلُّ طِمـــلٍ يَجُـــرُّ الـــمُخـــزِياتِ وَلا يُبـــالي

فياترى ، هل إنكار الشاعر على قومه حين بدَّلوا طبائع وخلائق تختلف عن خلائقه القويمة هي الشكوى التي يبثها هذا الرئيس؟ ويحاذر جرَّاءها من الوقوع في استهداف الأقوام المحيطين به ، وحصول شيء من غوائل الأمور

المستطيرة؟ لاسيما أن من هذه الشمائل الخبيثة إغارة على الأبرياء من غير ظلم ، وإسراع في انتهاك الفواحش من غير رادع ، وجرٌّ للمخزيات وفضح لذوي المروءة والأمانة . والبيت الأخير من القصيدة يوضح الصورة كثيراً ، ويبرزها بشكل أوضح حين يقول :

أَطَعــــتُم أَمـــــرَهُ فَتَبِعتُمـــــوهُ وَيَـــأتِي الغَـــيَّ مُنقَطِـــعَ العِقـــالِ

فالغيُّ لا يأتي إلا بالندامة والحسرة ؛ لذا فهي أقرب لجملة المحاذرة (يُحاذِرُ مِن سَرايا وِاغتِيالِ) والوقوع في براثن الاستهداف والوقيعة والاغتيال .

وكأن تلك الشكوى صافرة إنذار يطلقها لتتأهب الأنفس وتحاذر ما قد تلاقي مما يدور حولها ويحاك . .! [1].

---

(١) وقد استوقفتني كثرة الإشارة إلى أدوات الحرب والسلاح وشيوعها في الصور التشبيهية من هذه القصيدة ، نجدها في البيت التاسع عشر حين يقول :

« جُنوحَ الهالِكيِّ عَلى يَدَيهِ مُكِبّاً يَجتَلي نُقَبَ النِّصالِ »

ونجدها في البيت الرابع والعشرين ، والسابع والعشرين :

« وَوَلّى تَحسُّرُ الغَمَراتُ عَنهُ كَما مَرَّ المُراهِنُ ذو الجِلالِ »

« وَأَصبَحَ يَقتَري الحَومانَ فَرداً كَنَصلِ السَّيفِ حودِثَ بِالصِّقالِ »

ونجدها أيضاً في كل من البيت الثالث والثلاثين ، والسادس والثلاثين ، والسادس والأربعين ، والسابع والأربعين على التوالي :

« وَأَقبَلَها النِّجادَ وَشَيَّعَتها هَواديها كَأَنضِيَةِ المُغالي »

« كَأَنَّ سَحيلَهُ شَكوى رَئيسٍ يُحاذِرُ مِن سَرايا وَاغتِيالِ »

« يُضيءُ رَبابُهُ في المُزنِ حُبشاً قِياماً بِالحِرابِ وَبِالإِلالِ »

« كَأَنَّ مُصَفَّحاتٍ في ذُراهُ وَأَنواحاً عَلَيهِنَّ المَآلي »

وكأنها كانت هاجساً يسيطر على مخيلة الشاعر وأفكاره ، فبات مشحوناً بها ، فلم تكد تفارق معالم البيان عنده .

بعدها يعود الشاعر إلى مواصلة وصف الحمار ومايصدره من صوت وهو يتبع أتانه فهو يشبهه بتغنِّي الشارب الثمل من خمر بابلية معتقة ، تذكَّر هذا الشارب حزنه ، وشجنه فترامت به الخمر في مذاهب شتى .

وربما في هذا الوصف والتطرق إلى ذكر الخمرة وأوصافها وماتحدثه في نفس معاقرها من نشوة ولذة فيه شيء من انتشاء النفس واستعادة بهجتها وهي تتأهب لورود مناهل الماء ، وتثير الغبار من حولها ، وتتصاعد ذراته في السماء يمينًا ويسارًا حتى غدا ذلك الغبار كالسرادق الذي تضربه الريح فيتمايل تارة هنا وتارة هناك ، فبات هذا الحمار يرجِّع صوته بطريقة لا تخلو من غرابة حين يُصْدر الصوت من حلقومه ومخرج نفَسه .

وهذا الجزء من الأحداث يمكن أن يشير إلى حال النجاة من الوقوع في المهالك ؛ فهي تمثل حالاً من الزهو ، والانتشاء والعُجْب بالنفس من تحقيق النجاح بنجاة المصير! .

ويتبين من خلال الصورة الكلية التي رسمها الشاعر في وصفه للناقة وارتحاله عليها ،بعد أن شبهها بقصر الهاجري الذي بُني على خير مثال يحتذى، ثمَّ من خلال ذكر قصة الثور وموقفه من الكلاب الضارية ، وقصة حمار الوحش وسوق أوصافها وعرض مجريات الرحلة عليها أجد أن كل صورة أو قصة من هاتين القصتين تأخذ منحًى مغايرًا عن الآخر في رسم أفكارها ومضامينها التي استقتها من وحي أحداثها ومشاهدها ، وسياقاتها .

فقصة ذلك الثورتمثل للشاعر حالَ الاتزان ، وضبط النفس المغتاظة ، والاتكاء على جانب الحكمة ، عند لقاء المدلهمات ، والفواجع . . . .

بينما تمثل مجريات أحداث الحمار مع أُتُنه شيئًا من الحزم ، وتغليب جانب العنف ، وإثبات الذات والقوة ، ومحاولة إظهار الغلبة والهيمنة . . .

مما يظهر لنا محاولة الشاعر رسم صورة متوازنة لرؤاه ومواقفه تجاه الحياة ، وما يلبي حاجة النفس عنده ، من دون جنوح ، أو ميل ، أو تطرف .

وهذا ينسجم مع ما عرف عن طبيعة الشاعر ، وملامح شخصيته ، وتُظهر أيضًا مدى اقتراب نفَسَ هذه القصيدة من تكوين شخصيته وتفكيره ، ومنطقه ! .

والجانب الأسلوبي الذي بنى به الشاعر ملامح صورة الناقة من خلال سرد أوصاف كل من هاتين القصتين وامتدادهما ، لايختلف عما ابتدأ به مطلعه من وصف لديار المحبوبة ، ووقوفه عليها ، والبكاء بها بعد ارتحال أهلها عنها وذلك في اعتماده على البيان التشبيهي ، وميله نحو التفصيل وعرض الدقائق ، والتقصي في إظهار المشاهد .

فهو ينتقل إلى عرض ثلاث حالات ، أَجْمَل في الأولى مع استيفاء المعنى ، وأطنب وفصّل في حالتَي ذِكْر قصة الثور مع الكلاب ، وقصة حمار الوحش وأتانه . وقد اعتمد في كل ذلك على عنصر البيان التشبيهي مدخلاً لسرد الأحوال ، والأهوال ، من خلال وصف مظاهر الناقة التي كانت مسرحًا لعرض كل تلك الأحداث .

القصيدة الثالثة :

مطلعها[1] :

لِهِنـــدٍ بِـــأَعلامِ الأَغَـــرِّ رُســـومُ إِلى أُحُـــدٍ كَأَنـــــهُنَّ وُشـــومُ

قالها لبيد مفتخرًا ، يذكِّر بانتصار قبيلته بني عامر على قبائل جعفى ابن سعد العشيرة في يوم النخيل .

ومطلعها واقع بين ذكر الصاحبة هند ، وترديد ديارها بحديث مقتضب ، تكوَّن من ثلاثة أبيات . وحديث الرحلة والراحلة ، جاء في ثمانية أبيات أبان فيه عن طبيعة تلك الأرض التي قطعها ، وملاستها التي تشبه ظهر الترس . ثم انطلق ليُفصح عن هيئة وأحوال تلك الناقة قوةً ونشاطًا ودهاءً ، وكيف شق بها طريق رحلته ، حين شبهها بحمار الوحش ، واستطرد في ذكر تفاصيله مع أتانه

(١) ديوان لبيد ، ص٩٥ .

وهو يوردها ضحل الماء ، ثم ولج في غرض القصيدة وقد أشعل لهيب التشفي والشماتة على بنى جعفى ليظهر بذلك معالم الفخر والخيلاء حين قال :

شَفى النَفسَ ما خُبِّرتُ مَرّانُ أُزهِفَت ... وَما لَقِيَت يَومَ النُخَيلِ حَريمُ
قَبائِلُ جُعفِيِّ بنِ سَعدٍ كَأَنَّما ... سَقى جَمعَهُم ماءَ الزُعافِ مُنيمُ
تَلافَتهُمُ مِن آلِ كَعبٍ عِصابَةٌ ... لَها مَأقِطٌ يَومَ الحِفاظِ كَريمُ
فَتِلكُم بِتِلكُم غَيرَ فَخرٍ عَلَيكُم ... وَبَيتٌ عَلى الأَفلاجِ ثَمَّ مُقيمُ

أولاً : ذكر الصاحبة والديار[1] :

لِهِندٍ بِأَعلامِ الأَغَرِّ رُسومُ ... إِلى أُحُدٍ كَأَنَّهُنَّ وُشومُ
فَوَقفٍ فَسُلِّيٍّ فَأَكنافِ ضَلفَعٍ ... تَرَبَّعُ فيهِ تارَةً وَتُقيمُ

(١) ديوان لبيد (ص١٨١-١٨٣) (دار صادر) وبشرحه : (الأعلام : الجبال ، الأغر : واد يشق العالية ، وقيل : جبل أبيض . رسوم : آثار ، أُحُد : اسم جبل ، وهو غير جبل أحد المشهور ، وشوم : جمع وشم . فوقف ، فسلي فأكناف ضلفع : أسماء مواضع ، تربع : تقيم وقت الربيع ، زنانير : اسم موضع ، تدوم : اسم موشع كذلك والمرت : الأرض الملساء ، الخنوف : التي تخنف بأنفها أي ترفع رأسها وتميله ، في أحد شقيها ، الخبوب : السريعة السير ، العلاة : السندان التي يضرب عليها الحداد ، عذافرة : قوية شديدة ، حرف : ضامرة ، القتود : خشب الرحل ، السراة : الظهر ، جون : أسود ، العذوم : العضاض ، مسحاج : أتان سريعة الركض ، الفتور : التعب والإعياء ، يرن : يصيح ، يصوم : يقف ، يروي : سقاه في الشرب ، يطرب : ينهق ، غوي : مستهتر بالشراب ، التجار : باعة الخمر ، أميلت : أديمت ، قرقف : خمر تأخذ شاربها رعدة ، هميم : دبيب خفي ، يقلو : يسوقها سوقا شديدا ، ولعل الصواب (يعلو) كما ذُكر في الشرح أي يعلو بها في النجاد والطرق المرتفعة ، الأقب : الضامر ، الكر : الجبل ، الأندري : المنسوب إلى أندر وهي قرية بالشام ، شتيم : قبيح الوجه ، المسجور : العين المملوءة ، الغابة : الأجمة ، القرنتان : اسم موضع ، اتلأب : أقام صدره وعنقه ، ضحل الماء : القليل منه ، تمهرت : سبحت ، ويروى تغمرت : أي شربت منه قليلاً ، العرمض : الطلحب ، البريم : موضح الحقاب من المرأة ، المعنى : أي أصبح لها وشاح وبريم من الطحلب حين سبحت في الماء .

بِما قَــد تَحُــلُّ الــوادِيَينِ كِلَيهِمــا زَنــانيرُ فيهــا مَســكَنٌ فَتَــدومُ

يستهل لبيد مطلعه بذكر الصاحبة هند ، مبينًا آثار رسومها بمعالم تلك الديار البارزة التي كانت تجوبها ، فغدت تلك الآثار عالقة في أظهر معاهدها ، فهي تشبه آثار الوشوم . والوشوم تبقى عادة في أبرز مفاتن المرأة الظاهرة التي لاتستتر عادة ؛ فكذلك هي تلك الآثار التي خلدتها هند .

ولما قدم اسم الصاحبة (هند) ، وأدخل لام الاختصاص عليها أفاد مزيدا من العناية بها والاختصاص ، وكأن الحديث عنها مُؤْذِن بشيء من الخصوصية التي يحسن التنبه إليها . وفي صورة هذا الاسم مايقدح زناد الفكر ، ويجعل الخيال يدور في فلك الحرب وعدته المهندة وعتاده ؛ فكأنها إرهاص وتلويح بتذكر بنى جعفي بتلك الوقعة التي نكئت فيها جراحهم ، واستبيحت فيها حرماتهم ، فغدت سُبَّة عالقة بهم بين العرب لايمكن دفعها .

ثم يلاحظ في بناء الجملة وكيف قدم المكان (بأعلام الأغر) وجعل الرسوم آخرها ، فكانت هي بالبيان أعنى وأهم ؛ لما في الرسوم من ظهور حاصل مكشوف لاسيما وأنه في غرة تلك الأعلام ، فمتى رؤيت الأعلام انكشفت الرسوم . وفي دخول حرف الباء على الأعلام معنى من معاني التوكيد الذي يُبْطل مساورة الشك من أن تلك الرسوم والآثار واقعة دونها ، أو في مكان سواها .

وفي ذكر صورة (الأعلام ، والأغر ، والرسوم ، والوشوم) ما يشيع الإحساس بهيئة الحرب ويكشف عن لثام ملامحها ؛ فصورة الأعلام تشي بمعنى الحدث البارز واشتهاره وذيوع أمره . وهيئته بأنه أغر يعطى دلالة بأن الحديث منصبٌّ على علية القوم وأعلاهم . والرسوم هي الآثار التي خلفتها تلك الوقيعة ، فظلت عالقة لاتنمحي . وهيئة الوشوم فيها بصيص سخرية وتهكُّم ، ويشيع في إحساس النفس صورة ما توسم به النساء من الزينة . . وفي تعدد تلك الأماكن

وعطفها المتلاحق بالفاء مايدل على امتداد ذلك الحدث وذيوعه بين الناس ، ويوحي إلى النفس بعزةٍ قبيلة الشاعر ، وتوسعٍ في نفوذ سلطانها ؛ حتى إنها باتت (تَرَبَّعُ فيهِ تارَةً وَتُقيمُ) ! .

ثانياً : حديث الرحلة ، والراحلة :

وَمَرتٍ كَظَهرِ التُّرسِ قَفرٍ قَطَعتُهُ ... وَتَحتي خَنوفٌ كَالعَلاةِ عَقيمُ

عُذافِرَةٌ حَرفٌ كَأَنَّ قُتودَها ... تَضَمَّنَهُ جَونُ السَّراةِ عَذومُ

أَضَرَّ بِمِسحاجٍ قَليلٍ فُتورُها ... يَرِنُّ عَلَيها تارَةً وَيَصومُ

يُطَرِّبُ آناءَ النَّهارِ كَأَنَّهُ ... غَوِيٌّ سَقاهُ في التِّجارِ نَديمُ

أُميلَت عَلَيهِ قَرقَفٌ بابِليَّةٌ ... لَها بَعدَ كَأسٍ في العِظامِ هَميمُ

فَرَوَّحَها يَقلو النِّجادَ عَشِيَّةً ... أَقَبُّ ككَرِّ الأَندَرِيِّ شَتيمُ

فَأَورَدَها مَسجورَةً تَحتَ غابَةٍ ... مِنَ القُرنَتَينِ وَاتَّلأَبَّ يَحومُ

فَلَم تَرضَ ضَحلَ الماءِ حَتّى تَمَهَّرَت ... وِشاحٌ لَها مِن عَرمَضٍ وَبَريمُ

جاء حديث الرحلة والراحلة وذكرأوصاف الناقة امتداداً لحديث الصاحبة والديار ، ويحمل بين طياته أنفاس ذلك الشعور الدفين بأن الحديث فيها يحمل شئوم الحرب ولفح وطيسها الحامي ، وذلك بأول إطلالة جاءت عن طريق صورة المشبه به : (ظهر الترس) ، وماترميه من إيحاء ودلالة بمظهر التترس في عرصات ذلك الحمى ، وأنه سياج آمن يدرأ به العدا . بالإضافة إلى ماتشيعه هيئة معالم تلك الديار من مظاهر الشحوب والقتامة ؛ فهي أرض مقفرة لانبات فيها ولاحياة تظهر في معلمها ، وهكذا هي ساحات المعارك والقتال .

ثم يلاحظ كيف جاء التعبير عن الناقة بأنها تحته ؛ أي : في موقع السيطرة والتحكم ، فهو في مكمن منها ؛ هذه الناقة تشبه في صلابتها السندان فليست هي هنا كناقته تلك التي بنيت (بِأَشباهٍ حُذينَ عَلى مِثالِ كَعَقرِ الهاجِرِيِّ). بل هي هنا التي يضرب عليها الحدَّاد المعادن فيقيم معوجها! .

ثم ينسلُّ لبيد من التشبيه الأول إلى التشبيه الثاني انسلالة لطيفة تُظهر حسن تخلصه ؛ ليبين تفاصيل صورة هذه الناقة الصلبة الشديدة ؛ فهي تشبه حمارًا وحشيًّا أسود الظهر ، كثير العراك والعض . والسواد لون يدل على القوة ، ويزرع المهابة في النفس . والظهر كذلك يدل على قوة السند ، والمتانة ، وعلو المكانة . هناك بعض الدراسات الإحصائية استقرت أكثر من خمسين ديوانًا جاهليًّا وخلصت بنتيجة مؤداها «أن الشاعر الجاهلي لا يشبه ناقته بثور إلا حين يكون محور التجربة الموضوعية قائما على استشراف قيم أو بطولة فردية ، ولايشبهها بحمار إلا حين يكون محور التجربة الموضوعية قائما على استشراف قيم أو بطولة جماعية»(١).

وهذا يعمق الإحساس بأن الحديث هنا يجري في محيط القبيلة وسلطانها ؛ فهذا الحمار الوحشي قد اقترب من أتانه النشطة ليرقبها تارة عن كثب ، ويدعها أخرى . فهو في وضع المطمئن المسيطر ، بات يطرب بصوته على امتداد أطراف النهار ، يشبه في ذلك المستهترين من حدثاء الأسنان وقد تعاطوا من راح الخمر البابلية المعتَّق أجوده ، فَسَرَت ثمالها في أبدانهم ونفوسهم .

وهذه الصورة تحمل بين طياتها معنى من معاني التباهي والفخر والزهو ؛ كيف عبر عن النهيق بالتطريب؟! ثم جعل ذلك ظاهرًا للعيان على امتداد ساعات النهار ، ومافي ذلك من معاني البروز والتباهي . ثم جاء بصورة المشبه به في هيئة ذلك الغوي المستهتر وقد أغرق في شربه ومتاعه ، ولذائذه ، دون أي اكتراث لمن حوله .. حتى ثمل ، وسرى مفعول ذلك في أطرافه ومفاصله!!.

ثم قام هذا الحمار الضامر الشتيم يصعد بأتانه نحو النجاد والمشارف ، إلى أن أوردها عينا مسجورة غزيرة النبع ، ثمَّ اتلأبَّ يحوم حولها ، مقيمًا صدره وعنقه .

---

(١) مدخل لبنية القصيدة الجاهلية ، محمود الجادر ، منشورات أبحاث اليرموك ، سلسلة الآداب واللغويات ، المجلد السادس ص٧٩ ، العدد الثاني ، ١٤٠٩هـ .

والسياق العام لقصة هذا الحمار لم تظهر حالة من الترقب والتوجس والفزع التي تظهر في كثر من سياقات قصة حمار الوحش وهو يحاول ورود الماء ؛ بل على العكس من ذلك ، فليست كحال ذلك الحمار الذي حكى لبيد قصته في القصيدة التي مطلعها :[1]

سَفَهاً عَـذَلتِ وَقُلـتِ غَـيرَ مُلـيمٍ وَبُكـاكِ قِـدماً غَـيرُ جِـدِّ حَكـيمِ

وكان غرضها يدور حول الرثاء ، حيث يقول :

وَجَناءُ تُرقِـلُ بَعـدَ طـولِ هِبابِهـا إِرقـالَ جَـأبٍ مُعلَـمٍ بِكُـدومِ
جَـونٍ تَرَبَّـعَ في خَلـى وَسـمِيَّةٍ رَشَفَ الـمَناهِـلَ لَيسَ بِالـمَظلـومِ
ويظـلُّ مرتقبـاً يقلِّـب طرْفـه كعـريش أهـل الثلـة المهـدوم

فهو في هذا السياق جأب ، مطرَّد ، مُعلَّم بكدوم ، قد تربع في خلى وسمية : أي بأرضٍ مناهلها شحيحة ليست مملوءة . وفرَق هناك (فَأَورَدَها مَسجورَةً تَحتَ غابَةٍ) و (واتلأب يحوم) مقيما صدره وعنقه ، ومافيها من رباطة الجأش ، ومعاني الغلبة والسلطان !! .

وصورته هنا (إرقال ـ جأب ـ مُعلَّم ـ بكدوم) ظلّ مرتقبًا يقلب طرفه كعريش أهل الثلة المهدوم ، والثلة : الصوف . والعريش : خشبات تقام ثم يلقى عليها الحشيش ومافيها من معاني الترقب ، والفزع ، وخشية الضياع !! .

ثم انظر إلى قوله :

فَلَم تَرضَ ضَحلَ الماءِ حَتّى تَمَهَّـرَت وِشاحٌ لَهـا مِـن عَـرمَضٍ وَبَـريمُ

فهي تشترط مقاييسَ معينة لهذا الماء لتشرب منه ، وليس أي شرب ، ومافي ذلك من دلالة على الرفعة ، وعلو الشأن .

---

(١) ديوان لبيد : ص١٠٧-١١٧ .

ويلفتني قوله : (تمهَّرت وشاح) وماتثيره الصورة فيها من معاني الوسم والتعليم وإبقاء الأثر ، وماتُحدثه من هيمنة واستعلاء ، وهي تذكّرني كثيراً بحديث المطلع ، وتستحضرصورة الرسوم والوشم ، وتجعلها ماثلة أمامي وكأنها صدى وترجيع لتلك الصورة ، وثني لعجز القصيدة ومافيها من صور ومعانٍ وأخيلة على صدرها ، لتلتقي فيما بينها بتآلف ، وتعانق ، وانسجام .

وهو مايجعلني أميل إلى أن التنكير في (رسوم ـ وشوم) في فاتحة المطلع تفيد التعظيم ، وأنها رسوم ووشوم بنيت على مواصفات خاصة وفريدة ؛ فليست رسوما كأي رسوم ، ولاوشوما كأي وشوم! .

ثم يعاودني النظر مرة أخرى في قوله : (فلم ترض ضحل الماء . . حتى تمهرت وشاح) فهي صورة تثير لديَّ معاني دفع النفس بقضها وقضيضها نحو أقصى إمكاناتها ، ومقدرتها ؛ لتنال ليس العزيز النادر وإنما الأعز والأندر والأكرم . وكيف ناسب ذلك المعنى صورة الـ (وشاح) وماتثيره من معاني الفوز والغلبة والتتويج ، وأن قرارة النفس استقرت عند هذا الحد ؛ ليتحول بعدها تحولاً منسجما مع مشاعر النفس ، ويلج إلى صميم الغرض ، صادعًا بملء فيه عن عميق ماتكنه نفسه لقبيلة (مران) شاهراً لهم سيف الشماتة والتشفي ، ويدهم به صدر المعنى من البيت :

شَفى النَّفسَ ما خُبِّرتُ مَرّانُ أُزهِفَت ... وَما لَقِيَت يَومَ النُّخَيلِ حَريمُ

ثم تأمل في عناية ولطف إلى الصور البيانية (التشبيهية) التي تعاقبت في مفاصل هذه القصيدة انحداراً من المطلع :

لِهِندٍ بِأَعلامِ الأَغَرِّ رُسومُ ... إِلى أُحُدٍ كَأَنَّهُنَّ وُشومُ

فَوَقفٍ فَسُلِّيٍّ فَأَكنافِ ضَلفَعٍ ... تَرَبَّعُ فيهِ تارَةً وَتُقيمُ

وَمَرتٍ كَظَهرِ التُّرسِ قَفرٍ قَطَعتُهُ ... وَتَحتي خَنوفٌ كَالعَلاةِ عَقيمُ

عُذافِرَةٌ حَرفٌ كَأَنَّ قُتودَها ... تَضَمَّنَهُ جَونُ السَّراةِ عَذومُ

أَضَـــرَّ بِمِســـحاجٍ قَلِيـــلٍ فُتورُهـــا يَـــرِنُّ عَلَيهـــا تـــارَةً وَيَصـــومُ
يُطَـــرِّبُ آنـــاءَ النَهـــارِ كَأَنـــهُ غَـــوِيٌّ سَـــقاهُ فِي التِجـــارِ نَـــديمُ
أُميلَـــت عَلَيـــهِ قَرقَـــفٌ بابِليَّـــةٌ لَها بَعـــدَ كَـــأسٍ فِي العِظـــامِ هَمـــيمُ
فَرَوَّحَهـــا يَقلـــو النِّجـــادَ عَشِـــيَّةً أَقَـــبُّ ككَـــرِّ الأَنـــدَرِيِّ شَـــتيمُ

تجدها تحكي في طياتها إيماءات ، ونمنات لها إشعاعات دائرة في فلك القصيدة ، ومغزاها .

فصورة (كأنهنَّ وشوم) التي ارتسمت في عجز البيت الأول من حديث المطلع قدحت شرارة الرمزية إلى معاني البروز والبقاء والتجمل وإثارة العجب ، وكأنها أيام قد عدَّها الدهر في حسبانه ؛ فهي سارية بين أحياء العرب يحدث بها السُّمار في نواديهم في فخر ، وتَبَاه ، وعُجْب نفس!! .

ثم أعقب ذلك صورة : (كظهر الترس) وهي صورة شديدة الإيحاء بمظاهر الجحافل والعدة والعتاد ؛ فهي تقدح صورة ترسانة الحرب ، ومعاني التترس ، ومايتدرع به القوم إن حمي الوطيس وصال صائل الوغى فهي تدل على القوة ، وتوحي بالفخامة والمتانة ، وشدة البأس ! .

ثم كيف لاقى قوله : (تحتي) موقعًا متمكنًا ، وقدحت في النفس صورة الدلالة على الغلبة والهيمنة وشدة التحكم ، ثم أعقبها بقوله : (خنوف) التي هي شديدة الوقع على مثاقل السمع ، وتوحي بمعاني فرط من القوة والصلابة والمتانة ؛ فلم يناسبها إلا صورة تم اجتلابها من نسج بنيانها وصلابته ، وهي صورة السندان التي يضرب عليها الحداد فيقَوِّم عليها ما اعـوج مـن صلب الحديد ، وما أحكمها من صورة !!.

وكيف تسلسل المشهد في انسجام وتلاؤم ، فاختار في البيت الذي يليه صورة المشبه لهذه الناقة العذافرة الشديدة ، حمارًا وحشيًّا جون السراة عذوم :

وهو الأسود الظهر العضوض . والسواد رمز للقوة ، والظهر للمتانة ، والصلابة والعضوض لكثرة المنازلات والوقائع!! .

ثم أعقب ذلك صورة الحمار وهو (يُطَرِّبُ آناءَ النَهارِ كَأَنَّهُ غَوِيٌّ سَقاهُ في التِّجارِ نَديمُ) وتأمَّل كيف أثارتْ صورة هذا الحمار الغوي الطروب ، الذي يشبه سفيها من سفهاء الأحلام قد سقي الشراب حتى ثمل في دنان خمرته ، ومافي ذلك من معاني التدلُّه والبطر ، والامتلاء بمعاني النشوة ، والصبوة ، وطيش الفتيان !! .

ثم تلتها صورة الحمار الأقب الكريه الوجه (كَكَرِّ الأَندَرِيِّ شَتيمُ) وكيف تناسبت هذه الصورة مع ماتثيره من صور السطو والبطش والجبروت !! .

فمشاهد هذه الصور جاءت في إيماءة ، ولطف إخطار ، وتخفٍّ ؛ لتحكي كل منها مرحلة من مراحل النفس وإروائها في تلك الوقيعة التي شفت صدر لبيد مما لقيته منهم قبيلة (مران) يوم النُّخَيْل !! .

القصيدة الرابعة

مطلعها :

عَفا الرَّسمُ أَم لا بَعدَ حَــولٍ تَجَرَّمــا لأَســماءَ رَسمٌ كَالصَــحيفَةِ أَعجَمــا

يبدأ لبيد مطلع القصيدة بوصف الطلل وبقايا رسومه ، متسائلا عن حال عفائه ، ويذكر الصاحبة أسماء وديارها ذكرًا مقتضبًا في بيتين ، لينتقل انتقالاً سريعًا طالبًا ترك ما بدأ به مطلعه من حديث الصاحبة وذكر الديار وتحويل مسار الخطاب في القصيدة إلى مجرىً آخر ؛ ليبدأ بذكر قومه ، ويلج في صميم الغرض ، ويسرد أحداث وقائعهم وماجرى لهم ، ذكرا مفصلاً في زهو وفخر ؛ ليمتدَّ ذلك من البيت الثالث من القصيدة إلى منتهاها ، ذلك في أبيات بلغت اثنين وثلاثين بيتًا .

ويجدر بالبحث الإشارة إلى باعث هذه القصيدة فقد ورد في الديوان[1] أن بني جعفر (قبيلة لبيد) تداعت إلى الشَّر مع بني أبي بكر بن كلاب ، لأحداث صغيرة جرت بينهما في بادئ الأمر ، فلما لقحت الحرب بين الحيَّين ، قَتَل رجل من بني جعفر اسمه منيع بن عروة رجلاً من بني أبي بكر اسمه مرة ابن طريف . ثمَّ أقبلت قبيلة غنيٍّ فنزلت في جوار بني أبي بكر وكانت قد قتلت رجلاً من بني جعفر ، فقال الكلابيون لبني جعفر : قد أصابت غنى منكم دمًا وأصبتم منَّا دما ، فبوؤوا أحد القتيلين بالآخر . فأبت بنو جعفر أن تسامح غنيًّا ، وأن ترضى منها بشيء دون دية الملوك ، فوقعت الحرب بين الحيين من عامر ، وفيها خُذلت بنو جعفر ، فخرجوا متوجهين إلى بني الحارث بن كعب باليمن ليحالفوهم ، وأقاموا فيهم حولاً ، ثمَّ عادوا فنزلوا على حكم جوَّاب الكلابي .

أولاً : وصف ديار الصاحبة :[2].

عَفا الرَّسمُ أَم لا بَعدَ حَولٍ تَجَرَّما ... لأَسماءَ رَسمٌ كَالصَحيفَةِ أَعجَما

لأَسماءَ إِذ لَمّا تَفُتنا دِيارُها ... وَلَم نَخشَ مِن أَسبابِها أَن تَجَذَّما

أول أمر يلفتني حديث الشاعر المقتضب عن الديار والصاحبة ، واكتفائه ببث أنفاس الحيرة والشك عن طريق التساؤل والاستفهام عن حال عفاء هذه الديار مقيدا ذلك بمدة حولٍ من الزمان؟! .

ويأتي الجواب في الشطر الثاني من البيت متضمنا معنى إثبات هذا العفاء ، عن طريق رسم هيئة هذا الطلل الذي أصبح كالصحيفة في استواء سطحه . ثم

---

(١) شرح ديوان لبيد ، تحقيق : إحسان عباس ، ص٢٧٨ ، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت ، ١٩٦٢م .

(٢) ديوان لبيد ص٢٧٨ ، وبشرحه :
(تجرَّم الحول : ذهب وانقضى ، أعجما : لا يبين ، لما تفتنا : لما تذهب وتندرس دون أعيننا ، تتجذم : أي تتقطع) .

يعود مرة أخرى في البيت الثاني من المطلع إلى الحديث عن ديار أسماء ، ويصدر فيه الشاعر أسباب الحيرة التي ابتدرته في مستهل المطلع ، ولسان حاله يقول : إن هذه الديار لم تندرس رسومها دون أعيننا ، ولم نكُن نخشَى أن تنقطع العلاقة بيننا!! .

فهنالك حالة من الحيرة غشيت جو الشاعر من حال هذه الديار وصاحبتها أسماء ؛ فقد عفت رسومها دون أن يكون هنالك توقع بذلك ، ولم يكن هناك توقع أيضًا بتصدع تلك العلاقة بينه وبين أسماء! .

لكن سرعان ما حسم الشاعر الأمر بخروجه من جو تلك الحيرة التي غشيته ، واستنفاره على وجه من السرعة للحديث عن الغرض ، وكأنَّ هناك باعثًا مستحثًّا ، أو أمرًا داهمًا لايحتمل التأخير ، حال دون إطالة مهاد الغرض ؛ ليصب الشاعر دواعي النفس في محيط شواغلها ، فجاء الحديث عن الغرض على وجه من التتابع والتفصيل . حيث يقول :[1]

فَـدَع ذا وَبَلِّـغ قَومَنـا إِن لَقِيـتَهُم وَهَل يُخطِئَنَّ اللَّومُ مَن كـانَ أَلوَمـا

(١) ديوان لبيد ، ص٢٧٩-٢٨٦ : (الألوم : هو الذي يجر اللوم على نفسه بما يفعله ، آل الصموت وبنو نفاثة : هم بنو نفاثة بن عبد الله بن كلاب وآل الصموت فرع منهم ، من أشهرهم معاوية بن الصموت الذي كان يلقب الأسد المجدع ، قتل يوم جبلة ، الوحيد : هم بنو الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب ، الضباب : هم من بني كلاب ابن ربيعة وهو أخو جعفر ، حرس : اسم جبل في ديار بني عبس ، قيل ماء لغي ، الجهلتان : جانبا الوادي ، حي السواري : هم بنو عبد الله بن أبي بكر بن كلاب ويقال لهم السويريات ، المزنم : الكريم من الإبل الذي جعل له زنمة علامة لكرمه ، عودنا عود نبعة : أي لسنا خرعين يسهل كسرنا ، أجشم : كلف المشقة ، المعظم : الذي يرمي بالعظيم من الأمر أو يسوق النازلة الشديدة ، الخليج : هنا الجفنة ، غير أخرما : سليمة غير مشقوقة ، الفروض : العطيات والهبات ، القُريطين : تصغير القرطين قال البكري هو موضع قبل تثليث وقال ياقوت : حصن باليمن ، الأنواح : النائحات ، وأبأنا : استوفينا حقنا وأخذناه ، رواتنا : الرواة جمع راوٍ هو الرجل الذي يقوم ==

ثم يسترسل في سرد بناء قصصي متصل للأحداث والوقائع في ذلك الأمر :

مَوالِيَنا الأَحلافَ عَمــرو بــنَ عــامِرٍ ... وَآلَ الصَّــموتِ أَن تُفاتَــةُ أَحجَمــا
كِلا أَخَوَينــا قَــد تَخَيَّــرَ مَحضَــراً ... مِنَ الــمُنحَنــى مِن عاقِلٍ ثُمَّ خَيَّمــا
وَفَرَّ الوَحيــدُ بَعــدَ حَــرسٍ وَيَومِــهِ ... وَحَلَّ الضَّبابُ في عَلِــيٍّ بــنِ أَســلَما
وَوَدَّعَنــا بِالجَلــهَتَينِ مُســاحِقٌ ... وَصــاحَبَ سَــيّارٌ حِمــاراً وَهَيثَمــا
وَحَيَّ السَّواري إِن أَقــولُ لِجَمعِهِــم ... عَلى النَــأيِ إِلاَّ أَن يُحَيّــا وَيَســلَما
فَلَمّــا رَأَينــا أَن تُرِكنــا لأَمرِنــا ... أَتَينا الَّــتي كانَــت أَحَــقَّ وَأَكرَمــا
وَقُلنــا اِنتِظــارٌ وَائتِمــارٌ وَقُــوَّةٌ ... وَجُرثومَــةٌ عادِيَّــةٌ لَــن تَهَــدَّما
بِحَمدِ الإِلَــهِ مــا اجتَباهــا وَأَهلَهــا ... حَميداً وَقَبــلَ اليَــومِ مَــنَّ وَأَنعَمــا
وَقُل لِابنِ عَمرٍ ما تَرى رَأيَ قَــومِكُم ... أَبا مُدرِكٍ لَو يَأخُــذونَ الــمُزَنَــمّا
وَنَحنُ أُنــاسٌ عودُنــا عــودُ نَبعَــةٍ ... صَليبٌ إِذا ما الدَّهرُ أَجشَــمَ مُعظِمــا
وَنَحــنُ سَــعَينا ثُــمَّ أَدرَكَ سَــعيَنا ... حُصَينُ بنُ عَوفٍ بَعدَما كــانَ أَشــأَما
وَفَكَّ أَبا الجَوّابِ عَمــرو بــنُ خالِــدٍ ... وَما كانَ عَنهُ نــاكِلاً حَيــثُ يَمَّمــا

== على الخيل ، الغوج : اللين الأعطاف من الخيل ، المحرم : الصعب ، يَنُبْن : بنزلن بالعدو كأنهنَّ النوائب ، المخـدَّم : الـذي وضـع الخدمـة في رسغه ، أعضـاد المطـي : جوانبه ، اللديد : اسم موضع ، الأحاليب : مايجمع من الحليب حين تكـون الإبـل في المرعى ويحمل إلى الحي ، محضاً معمما : أي لبنًا أبيضَ ، المنسر : جماعـة الخيـل أقلها ثلاثة وأكثرها مائتان وتكـون قطعـة مـن مقدمـة الجـيش ، محبـوك : مـدمـج ، السرو : جبل باليمن شبه الجيش به ، الأيهم : الأعمى ، تحتم : بلـد بـاليمن مـن ديـار مراد ، التزغم : حنين خفي كحنين الفصيل ، وهو التغضـب في الكـلام ، منيعـا : هـو منيع بن عروة قاتل مرة بن طريف ، خُفًا ومِنْسَما : علـى سـبيل المثـل أي لـن يعـدم المعروف من يسعى في سبيله».

وَيَــومَ أَتانــا حَــيُّ عُــروَةَ وَابنِــهِ ... إِلى فاتِــكٍ ذي جُــرأَةٍ قَــد تَحَتَّمــا
غَــداةَ دَعــاهُ الحارِثــانِ وَمُســهِرٌ ... فَلاقى خَليجاً واسِــعاً غَــيرَ أَخرَمــا
فَإِن تَذكُروا حُسنَ الفُــروضِ فَإِنَّنــا ... أَبَأنــا بِــأَنواحِ القُــرَيطَينِ مَأتَمــا
وَإِمّــا تَعُــدّوا الصــالِحاتِ فَــإِنَّني ... أَقــولُ بِهــا حَتّــى أَمَــلَّ وَأَســأَما
وَإِن لَــم يَكُــن إِلاَّ القِتــالُ فَإِنَّنــا ... نُقاتِلُ مَن بَــينَ العَــروضِ وَخَثعَمــا
أَبى خَســفَنا أَن لا تَــزالُ رُواتُنــا ... وَأَفراسُــنا يَتــبَعنَ غَوجــاً مُحَرَّمــا
يَــنُبنَ عَــدُوًّا أَو رَواجِــعَ مِنــهُمُ ... بَوانِيَ مَجــداً أَو كَواسِــبَ مَغنَمــا
وَإِنّــا أُنــاسٌ لا تَــزالَ جِيادُنــا ... تَخُــبُّ بِأَعضــادِ المَطِــيِّ مُخَــدَّما
تَكُــرُّ أَحاليــبُ اللَّديــدَ عَلَــيهِمُ ... وَتوفَى جِفانُ الضَيفِ مَحضاً مُعَمَّمــا
لَنا مَنسَرٌ صَعبُ الــمَقــادَةِ فاتِــكٌ ... شُجاعٌ إِذا ما آنَسَ السِّــربَ أَلجَمــا
نُغــيرُ بِــهِ طَــوراً وَطَــوراً نَضُــمُّهُ ... إِلى كُلِّ مَحبوكٍ مِــنَ السَّــروِ أَيهَمــا
وَنَحــنُ أَزَلنــا طَيِّئــاً عَــن بِلادِنــا ... وَحِلفَ مُرادٍ مِــن مَــذانِبَ تَحتَمــا
وَنَحــنُ أَتَينــا حَنبَشــاً بِــابنِ عَمِّــهِ ... أَبا الــحُصنِ إِذ عافَ الشَّرابَ وَأَقسَما
فَــأَبلِغْ بَــني بَكــرٍ إِذا مــا لَقَيتَهــا ... عَلى خَيرِ ما يُلقى بِــهِ مَــن تَزَغَّمــا
أَبونــا أَبــوكُم وَالأَواصِــرُ بَينَنــا ... قَريــبٌ وَلَــم نَــأمُر مَنيعــاً لِيَأثَمــا
فَإِن تَقبَلوا الــمَعــروفَ نَصبِر لِحَقِّكُم ... وَلَن يَعدَمَ الــمَعــروفُ خُفّاً وَمَنسِما
وَإِلّا فَما بِالــمَــوتِ ضُــرٌّ لِأَهلِــهِ ... وَلَم يُبقِ هَذا الدَّهرُ في العَيشِ مَنــدَما

وهكذا نرى القصيدة قد سارت في منحى غرضها المنشود ، وجاءت الأحداث متوالية في عرض مجرياتها ؛ فكانت صورة مفصلة لما دار بين قبيلتي بني جعفر قوم لبيد وبني أبي بكر ، وما ولي ذلك من تصاعد في شأن الأحلاف الموالية لبني جعفر ، وخذلانها للموقف الذي تبنته ، وماتبع ذلك .

والذي يهمني في المقام الأول هيئة ومعنى (العفاء) التي صبغت أبنية المطلع بلون رمالها الصفراء ، وأظهرت تعرجات الرياح ، واكتست بثوب التساؤل والاستفهام المحيِّر! .

ومن ذلك البيت الثاني الذي جاء منطويًا على كثير من مجريات وأحداث القصيدة ، فجملة البيت (لِأَسماءَ إِذ لَمّا تَفُتنا دِيارُها وَلَم نَخشَ مِن أَسبابِها أَن تَجَذَّما) استودعت في حناياها أسرار أبعاد القصيدة ، واختزلت جوهر معانيها . فما ديار أسماء التي لم تفت الشاعر ؟ وفي الوقت ذاته لم يك يخشى من أسماء هذه تجذم العلاقة وانقطاعها ؟!! .

فروح الحيرة لم تزل ساكنة في تجاويف هذا البيت ؛ هذه الحيرة جاء بها اختلاف العلاقات وتباينها بين قبيلة بني جعفر قوم لبيد والأحلاف من قبائل عمرو بن عامر ، وآل الصموت ، وبني نفاثة . فقد ظلت هذه العلاقة قائمة دون أن تتسرب إليها أسباب التصدع والانقسام، ثم تفاجأ بنو جعفر بذلك الخذلان، بعد أن راهنت على أحلافها ، حينما طمعت بهم في استرداد حقها في الدم ، وتجيير ذلك التحالف لحسابها في تبوُّء مكانة عليِّة بين القبائل ، وأن تظهر بروح الأنفة الزهو وقوة السطو ؛ فلذلك كان هذا الاستفهام المحيِّر هو الملامس لجوهر القصيدة وروح بنائها .

فهذه القبائل الموالية من عمرو بن عامر وآل الصموت وبني نفاثة هي مرجع قبيلة بني جعفر ومن فروعها تنحدر ؛ فلا تخرج عنها . وما أقرب هذا من جملة : (إِذ لَمّا تَفُتنا دِيارُها) !! وعلاقاتهم مع بعضهم البعض قائمة متماسكة ، لايشوبها شائب من صدع وتوتر واختلاف ، وتأمل شدة قرب هذا المعنى من قوله : (وَلَم نَخشَ مِن أَسبابِها أَن تَجَذَّما) .

إضافة إلى هيئة العفاء الذي صدع به صدر المطلع ، والذي تشربته دلالة الاستفهام التقريري !! .

فكانت تلك كالنمنمات والوشي التي كست جوهر ما في القصيدة من أحداث ، سرعان مانحى الشاعر بها منحًى آخر من الخطاب ، حاثًّا فيه على ترك ما ابتدر به ، وتبنَّى تجريد الحديث ، وكشف تلك الأحداث وعرِّى صورها ، ومعانيها ؛ فجعلها ظاهرةً للعيان ؛ ابتداءً من قوله :

« فَدَع ذا وَبَلِّغ قَومَنا إِن لَقِيتَهُم ، إلى منتهى القصيدة .

القصيدة الخامسة

مطلعها : [1]

طَلَـــلٌ لِخَولَـــةَ بِالرَّســـيسِ قَـــديمُ فَبِعاقِـــــلٍ فَـــــالأَنعَمينِ رُســـــومُ

(١) ديوان لبيد : ص١١٨-١٢٣ وبشرحه : (الطلل : ماشخص من آثار الدار ، خولة : امرأة ، الرسيس : اسم موضع ، وكذلك الأنعمان وعاقل ، الرسوم : آثار الدار والمواضع ، معروف الديار : ماعرف من الديار ، قادم : موضع ، البراق : الأرض يخلط ترابها حصى ، أو الأكمة تجرُّ إليها الريح التراب الكثير ، الغول : ماتطامن من الأرض وسهل ، الرجام : حجارة مجموعة واحدها رجمة وهي علامات ، وشوم : آثار ، المذهب : اللوح عليه ذهب ، وقالوا : هو لوح ضمت إليه ألواح من جوانبه كانوا يضعون عليه الكتب تعظيماً للملك ، الجدد : الطرائق التي فيه ، الناطق : الكتاب ، المبروز : المكتوب ، المختوم : الذي لم ينشر ، النؤي : حفر يحفر حول البيت ليردَّ ماء المطر ، المهدوم : المتهدم ، ظعن الحي : النساء في الهودج ، لما أشرفت : أي ارتفعت ، الآل : السراب ، حزوم : الحوم من الأرض : ما ارتفع وأشرف وغلظ ، كوارع : أي في الماء ، محلم : نهر بالبحرين ، موقر : حامل ، مكموم : مغطى بالكمامة ، سحق : الطوال ، يمتعها : يربيها ويحسن نباتها ويطيلها ، صفا : نهر صفا المشقر بالبحرين ، سريه : نهر يعني الصفا ، عم : طوال العظام ، زجل : فرق ، بيض : نساء ، رخيم : حسن ، بقر : أي كأنهن بقر ، مسارب : مراعٍ ، عازب : حشيش لم يوطأ ، الشقيقة : أرض بين رملتين تنبت نباتاً ، الصريم : الرمل المنفرد ، ارتبهن : رباهنَّ ، بقر : يعني النساء ، مساربها : مذاهبها في الرعي ، فصرفت قصراً : أي عدلت وجه ناقتي ، قصراً عشيًّا ، الشئون : مجاري الدمع ، الغرب : الدلو العظيم ، القلوص : الناقة التي تستقى ، هزيم : مشقوق ، جرشية : ناقة منسوبة إلى جرش وهي ==

تبدأ القصيدة بذكر الطلل ومابقي من آثار ديار خولة ورسومها ووصف دمنها التي تلاعبت بها الرياح ، وبنؤيها . ثم تلاه حديث عن الظعن المرتحل ، امتد أحد عشر بيتًا ، فصَّل فيها القول ، وجعل الوصف فيها على ثلاث مراحل ، شبه في الأولى الظعن بالنخل ، حين يقول :

فَكَأَنَّ ظُعنَ الحَيِّ لَمّا أَشرَفَت ... بِالآلِ وَارتَفَعَت بِهِنَّ حُزومُ

نَخلٌ كَوارِعُ في خَليجٍ مُحَلِّمٍ ... حَمَلَت فَمِنها مَوقِرٌ مَكمومُ

وفي الثانية ، شبه النساء وهن في الهودج بقوله :

بَقَرٌ مَساكِنُها مَسارِبُ عازِبٍ ... وَارتَبَّهُنَّ شَقائِقٌ وَصَريمُ

وفي المرحلة الثالثة ، ذكر انصرافه عن الظعن ، والبكاء عليها :

فَصَرَفتُ قَصراً وَالشُؤونُ كَأَنَّها ... غَربٌ تَحُثُّ بِهِ القَلوصُ هَزيمُ

وشبه مجاري دمعه بالدلو المحمول على الناقة وفصل في ذلك .

ثم انتقل بالحديث إلى وصف الناقة ، مسليًا همه بها :

لَولا تُسَلّيكَ اللِبانَةَ حُرَّةٌ ... حَرَجٌ كَأَحناءِ الغَبيطِ عَقيمُ

==أرض باليمن ، مقطورة : مطلية بالقطران ، المحاجر : الأماكن التي اجتمع فيها الماء ، ويقال هي البساتين ، الحدائق : حيطان النخل ، بازل : قد انتهى سنها ، علكوم : ضخمة كثيرة اللحم ، دهماء : ناقة سوداء ، دجنت : تعودت العمل وذلت ، أحنق صلبها : ضمر وانضم لحمها وهو ليس بهزال ، الرضح : دق النوى ، التصريم : فساد الأطبَاء من صرار أو غير ذلك ، وربما كويت أطباؤها لأن لاتحلب ، وقوله : أحاله فيها الرضح والتصريم : أي استبان ذلك في جسمها وقوتها ، تسنو : تستقى ، متبذل : قد ابتذل نفسه للعمل ، شثن : غليظ الكف والأصابع ، دميم : قليل قبيح ، يعجل كرها : يعجل ردها ، مقابل دلو من جلدين قوبل ، سرب : سائل ، المخارز : موضع الخرز ، عدله : دلو آخر مثله ، المحالة : البكرة التي يلتف عليها الحبل ، جارن : لين ، مسلوم : دبغ بالسلم وهو شجر ، تحيرت الدبار بالماء : أقام الماء فيها ولم يجد منفذًا ، قتبها : قتبها وماعليه ، الزلف : مصانع الماء ، وقيل : مسحاج الصبيان ، والزلف : المكان الأملس ، الحزوم : الربوط بالحزام .

وقد امتد حديثه عنها في سبعة عشر بيتًا ، وصفها وصفًا مفصلاً منتقلاً لبيان حالها ابتداءً وهي في هيئة الفحل الهائج الذي حُبس عن الضِّراب ، إلى حالها وهي في هيئة فحل الحمر الوحشية : ويستطرد في ذكر أوصافه وقصته مع أتانه ، إلى أن انقضى همه :

فَبِتلكَ أَقضي الهَمَّ إِنَّ خِلاجَهُ سَقَمٌ وَإِنّي لِلخِلاجِ صَرومُ

ثم يذكر نفسه مفتخرًا في بيت واحد بأنه شديد المضاء في المفاوز ، أعقبها ببيت واحد ذكر فيه المرعى والسحاب ، ثم بيتين ذكر فيهما انتحاءه للفرس اللجوج . ثم دخل بعد ذلك إلى صميم الغرض ، وكشف عن جوهره ، وملابساته في خمسة عشر بيتًا ؛ حين قال :

إِنّي امرُؤٌ مَنَعَت أَرومَةُ عامِرٍ ضَيمي وَقَد جَنَفَت عَلَيَّ خُصومُ

وتختم بعد ذلك القصيدة .

ومطلع القصيدة يتوزع بين أمرين : حديث الطلل ، والصاحبة ، وحديث الظعن .

أولاً : حديث الطلل :

طَلَلٌ لِخَولَةَ بِالرَّسيسِ قَديمُ فَبِعاقِلٍ فَالأَنعَمينِ رُسومُ
فَكَأَنَّ مَعروفَ الدِّيارِ بِقادِمٍ فَبُراقِ غَولٍ فَالرِّجامِ وُشومُ
أَو مَذهَبٌ جَدَدٌ عَلى أَلواحِهِ نَّ الناطِقُ المَبروزُ وَالمَختومُ
دِمَنٌ تَلاعَبَتِ الرِياحُ بِرَسمِها حَتّى تَنَكَّرَ نُؤيُها المَهدومُ
أَضحَت مُعَطَّلَةً وَأَصبَحَ أَهلُها ظَعَنوا وَلَكِنَّ الفُؤادَ سَقيمُ

المتأمل لأبيات هذه القصيدة وينظر في أحوالها ، وملاباساتها ، والأجواء التي قيلت فيها ، يجدها شديدة الارتباط بالقصيدة السابقة : (لهند بأعلام الأغر رسوم) جارية على أنغامها ، وتحمل نبرات من رجيع تلك الأصوات وكأنها صدى لفحوى أحداثها وحديثها ، وتدور في محيط فلكها!! .

ولا يمكنني الجزم بأيهما أسبق في القول ؛ لأن هذه القصيدة التي نحن بصددها من القصائد المبكرة وهي من حسان شعره ؛ وهي التي سمعها النابغة فقال : أنت أشعر قيس . أو قال : هوازن كلها[1]. ولكن يغلب على ظني أن تلك القصيدة هي الأسبق ؛ لأنها كانت تقوم على حال التشفي على (مَرَّان) ومالقيت يوم النخيل . فلم يُطِل لبيد في بناء معانيها ، وكأنه أراد أن يروي غلته ويطفي لهب حرته من تلك الوقعة ، فاكتفي بما حل بـ(مران) في ساحة الوغى ، فصرَّح بذلك ، ولم يُطل التلميح والتمهيد :

شَفى النَّفسَ ما خُبِّرتُ مَرّانُ أُزهِفَت وَما لَقِيَت يَومَ النُّخَيلِ حَريمُ

على العكس من هذه التي عاد الشاعر إلى سالف نهجه في بناء المعاني فيها ، وإعطائها نفَسًا أطول وأعمق خاصة وأنه قد بناها على الفخر بمآثر القبيلة (أرومة عامر) والتغني بأمجادها ، حتى بلغت خمسة عشر بيتًا في ذلك! .

أضف إلى ذلك الإشارات إلى الوقائع ، ومجيئها في هيئة الماضي وصيغه مثل : (وَقَد جَنَفَت عَلَيَّ خُصومُ) :

«مِنها حُوَيٌّ وَالذَّهابُ وَقَبلَهُ يَومٌ بِبُرقَةَ رَحرَحانَ كَريمُ»

«وَلَقَد بَلَت يَومَ النُّخَيلِ وَقَبلَهُ مَرّانُ مِن أَيّامِنا وَحَريمُ

فلهذا كان التقديم لأمر (هند) أدعى لحاله هنالك ، وكان بشأنها أعنى . وتقديم ذكر الطلل هنا أكثر تلاؤمًا لأحوال القصيدة وملابساتها .

فالافتتاح بتقديم صورة الطلل وجعلها مدخلاً لحديث المطلع أكثر استدعاءً لحال الماضي ، والوقوف على أحوال عهد السابقين ومآثرهم والتنكير لها يوحي بتعظيمها ، واستدعاء مشاعر المجد والافتخار . وفي قوله : (قديم) تجذير لمعنى الطلل . وقوله : «معروف الديار» اختصرت لنا كثيرًا من عدد

(١) ديوان لبيد (ص١٥١، دار صادر) .

تلك الديار التي ذكر لنا جملة منها ، وكأن المقام كان يستعصي حصرها ، وكلمتا (رسوم/ ووشوم) توحيا بالفخر ، والتنكير فيهما يفيد التعظيم أيضًا .

ثم تحول الشاعر في الإبانة عن الشيء الواحد من حالة إلى حالة أخرى ، فيه مزيد من العناية بها ، والتنويه عليها ، والاحتشاد لها ؛ خاصة أن ذكر الحالة الثانية (أو مَذهَبٌ جَدَدٌ عَلى أَلواحِهِن الناطِقُ المَبروزُ وَالمَختومُ) ، فيه مظهر من مظاهر الإعزاز ؛ فهيئة المذهب : وهو : اللوح عليه ذهب . وقالوا : هو لوح ضمت إليه ألواح من جوانبه كانوا يضعون عليه الكتب تعظيمًا للملك . والجدد : الطرائق التي فيه . والناطق : الكتاب . والمبروز : المكتوب . والمختوم : الذي لم ينشر[1]. فكل هذا يوحي بعلوِّ شأن تلك الآثار ، وقيمتها .

ثم يلاحظ كلمة (دمن) في البيت الذي يليه ، ومافيها من ترديد لصدى تلك الأطلال ، وامتداد لإشاعة صورتها .

وفي تقديمها على الجملة الفعلية مايوحي بأهمية الإشارة إلى تلك الدمن ، وكأنها تحمل في مباءاتها شيئًا تود أن تنبه إليه ، وتنكيرها يعظم من أمرها . والذي رسم معالم تلك الدمن وصاغ حدودها وتلاعبت في ملامحها هو الرياح . وفي جملة : (تلاعبت الرياح) شيء من معاني التفخيم والهيمنة جاءت بها صورة التلاعب : التي تفيد التمكن والاستهتار ، والتعريف بأل في الرياح .

والغريب أن تلك الرياح لم تهدم ذلك النؤي ، وإنما نكَّرت معالم أثره ؛ فقد كان مهدوما من قبل . الذي أفاد ذلك : التعريف فيها ؟!!

ولا أدرى ما السر وراء هذا النؤي المهدوم من قبل ثم ذرته الرياح فعاثت في بقاياه حتى تنكرت أركانه؟!! . وكأنها ترمز إلى واقع قد تعاقب عليه حين من الدهر فأرداه !! .

---

(١) ديوان لبيد : ص١١٩ .

هذا النؤي ليس عن حال خصوم الشاعر ببعيد ، وهم الذين أوقعت بهم بنو عامر رهط لبيد في مواقع مضت أشار إليها : [1]

مِنها حُوَيٌّ وَالذَّهابُ وَقَبلُهُ يَومٌ بِبُرقَةَ رَحرَحانَ كَريمُ

وَلَقَد بَلَت يَومَ النُخَيلِ وَقَبلَهُ مَرّانُ مِن أَيّامِنا وَحَريمُ

ثم أردف ذلك بقوله : (أضحت معطلة وأصبح أهلها ظعنوا) والوصف بالمعطلة صالح لأن يكون لحال الصاحبة خولة ، ولوصف الظعن فالمرأة المعطلة :(التي لم يكن عليها حَلْيٌ ولم تَلْبَس الزينة وخَلا جِيدُها من القَلائد) ، وإبل معطلة : التي لا راعي لها[2].

ووصف المرأة بالمعطلة يأتي عادة في سياق المدح ؛ وذلك لقدرتها على الاستغناء بطبيعة جمالها الأصلي عن مكملات أسبابه ومهيئاته من أدوات الملاحة والحُسْن ، كالحلي ، والقلائد ، وغيرها . إلا أن السياق هنا يستثقل هذا ، خاصة أنها قد أضحت معطلة بعد أن ظعن أهلها بالرحيل ، وجاء ذلك عقب أن نُكِّرت الرياح نؤيها المهدوم ، وقد تلاعبت برسوم دمنها! .

والخولة في الأصل : الظبية . ومن مشتقاتها (يقال : هؤُلاء خَوَل فلان : إذا اتخذهم كالعبيد ، وقَهَرهم . قال الفراء في قولهم : القوم خَوَل فلان ، معناه : أَتباعه . وقال : خَوَل الرجل : الذي يملك أُمورهم . وخَوَّلك اللهُ مالاً أَي :

---

(١) وقد ورد في شرح الديوان : « حوي وذهاب » : يومان كانت ـ لقوم لبيد ـ لهم فيه وقعة ، وهي غائط من أرض بني حارث بن كعب أغار عليهما فيه عامر بن الطفيل وعلى أحلافهم من أهل اليمن ، وقبله يوم برقة رحرحان وهما يومان : الأول منهما أن يثربي بن عدس بن زيد أغار على بني عامر ،وعليهم يومئذ الأحوص فقتلوا يثربيا. وأما اليوم الثاني فجرَّه الحارث بن ظالم ، وقد قتل خالد بن جعفر فأجارته بنو دارم وأبت أن تسلمه ، فغزاهم ربيعة بن الأحوص بن جعفر بأفناء عامر طالباً بدم أخيه ، فالتقى الفريقان برحرحان ، وانقضت فيه بانتصار بني عامر . (شرح ديوان لبيد : ص١٣٣) .

(٢) اللسان : (عطل).

مَلَّكك». [1]. وهذا في تصوري صالح جدًّا ، ومناسب لأن يحيا به مقام لبيد ، وماتنازعه به نفسه من بسط سلطان العزة والمنعة والأنفة في وجوه مناوئيه .

وقوله : (ظعنوا ولكنَّ الفؤاد سقيمُ) تحمل بين جنباتها نبرة تحسر على بقايا دفين لم يشفه حال رحيل الظعن ، وكأن الذي يفترض من ذلك الرحيل أنه يشفي الفؤاد!! وعلى العكس مما كان يفترض أفاد ذلك الاستدراك بلكنَّ ، ثم انبرى بعد ذلك للاستغراق بوصف حال الظعن .

ثانياً : وصف الظعن :

فَكَأَنَّ ظُعنَ الحَيِّ لَمّا أَشرَفَت ... بِالآلِ وَارتَفَعَت بِهِنَّ حُزومُ

نَخلٌ كَوارِعُ في خَليجٍ مُحَلِّمٍ ... حَمَلَت فَمِنها مَوقِرٌ مَكمومُ

سُحُقٌ يُمَتِّعُها الصَّفا وَسَرِيُّهُ ... عُمٌّ نَواعِمُ بَينَهُنَّ كُرومُ

زُجَلٌ وَرُفِّعَ في ظِلالِ خُدوجِها ... بيضُ الخُدودِ حَديثُهُنَّ رَخيمُ

بَقَرٌ مَساكِنُها مَسارِبُ عازِبٍ ... وَارتَبَّهُنَّ شَقائِقٌ وَصَريمُ

فَصَرَفتُ قَصراً وَالشُّؤونُ كَأَنَّها ... غَربٌ تَحُثُّ بِهِ القَلوصُ هَزيمُ

بَكَرَت بِهِ جُرَشِيَّةٌ مَقطورَةٌ ... تُروي المَحاجِرَ بازِلٌ عُلكومُ

دَهماءُ قَد دَجَنَت وَأَحنَقَ صُلبُها ... وَأَحالَ فيها الرَّضحُ وَالتَّصريمُ

تَسنو وَيُعجِلُ كَرَّها مُتَبَذِّلٌ ... شَثنٌ بِهِ دَنَسُ الهَناءِ دَميمُ

بِمُقابِلٍ سَرِبِ المَخارِزِ عِدلُهُ ... قَلِقُ المَحالَةِ جارِنٌ مَسلومُ

حَتّى تَحَيَّرَتِ الدِّبارُ كَأَنَّها ... زَلَفٌ وَأُلقِيَ قِتبُها المَحزومُ

يبدأ هذا المنعطف بذكر حال الظعن الذي يشبه النخل المكرع في الماء ، هذا النخل محمل ، جزء منه (موقر مكموم) بغطاء خشية البرد ، أو أن يصيبه

(١) اللسان : (خول).

داء ، أو أن يسرق . فهي طوال عظام ، قد نمت وتربت على ماء الصفا والمشقر ، بينها كروم . ثم عاد ليصف مشاهد هذا الظعن من جانب آخر ؛ فهي فِرق ودفع قد رفعن في السير في ظلال هوادجها وقد بدت بياض خدودهن ولين حديثهن الرخيم . ثم راح يشبهها مرة أخرى بالبقر وقد استقرت في مراع مقفرة ، قد عزب عنها الناس فلم يرعوا فيها .

والحقيقة أني أجد هذا الظعن يحمل بين طياته صورة ملبسة ؛ فهي تحمل من صفات الكمال والحسن والنضج وعلقة النفس ماهو ظاهر ؛ خاصة في قوله: (نخل كوارع) وهي التي تروَّت من ماء النهر فلا ينحبس عنها ، فمنه حامل للأعذاق . وقوله : (موقر مكموم) تحمل من صفات التراخي شيئًا يقبله الذوق . وأجد في هذه الصورة معنى من معاني الاستكانة والضعة والهوان . أضف إلى ذلك ماتثيره لفظة الظعن من معاني الضعف . وصورة (بيض الخدود حديثهن رخيم) والبقر التي رعت المسارب القفر التي عزب عنها الناس ، وارتبهنَّ شقائق وصريم . وربما كان في صفات النضج والضخامة لهذا النخل ، والملاحة والحسن لهذا الهودج ، مايشجع النفس ويداعب انشراح قريحتها لتنساق خلفها دركا للنَّيل منها واغتنامها ، وسلب مالديها من خيرات . وفي لفظتي (شقائق وصريم) مايجعل النفس تنشط لهذا ، ولاتأنف منه .

والمتأمل في بناء هذه الصورة يجدها متشابهة التركيب ، قد تدفقت أنفاسها وخرجت في نسج متلاحم البنية ، وكأنها وُلدت من رحم واحد وإن تنوعت جهاتها ، قد تصدَّر في كل منها الاسم النكرة في جملة اسمية متتابعة :

« نَخلٌ كَوارِعُ في خَليجِ مُحَلِّمٍ »
« سُحُقٌ يُمَتِّعُها الصَّفا وَسَرِيُّهُ »
« عُمٌّ نَواعِمُ بَينَهُنَّ كُروم »
« زُجَلٌ وَرُفِّعَ في ظِلالِ حُدوجِها »
« بَقَرٌ مَساكِنُها مَسارِبُ عازِبٍ »

ومثل هذا البناء يورث الكلام نغما متقاربًا منسجمًا ، ويؤلف بين مختلف أجزاء الصورة ، ويقرب بين متباعدها ، فتأخذ بعضها بحُجُز بعض ، وإن سلكت معانيها مسارب مختلفة حتى تصب في مجرى واحد ، سالكة الطريق بالمعنى نحو غايته وتمام مقصده . فجاء في منعطفها الأخير صورة البكاء بهذه الهيئة رباطًا جامعًا لما تشعث من متفرقها ، وململمًا لأشتاتها . والفاء في (فصرفت قصرًا) جاء عقيب تلك الصورة ؛ لتحكي مرحلة تحول وانصراف وانتقال إلى آخر فصول المشهد .

والقصر : وقت العشي . وفي ذلك دلالة على امتداد فترة التلفت نحو الظعن ، ووداعتها ، فقد امتدت مابين أول الهجير ، حين (أشرفت بالآل) إلى آخر العشي . هذا الامتداد جاء ليؤكد على وجوه التنوع في مشهد الرحيل من جهة ، ووصف حال البكاء والتعلق من جهة أخرى .

ثم ذكر مجاري الدمع ووصفها بالدلو القديم المتشقق ، وقد استحثت به ناقة تستقي . هذه الناقة لديها من صفات القوة والجسارة ماهو ظاهر ؛ فهي أشبه بناقة حرب منها بناقة سقاء وسلام . فهي (مقطورة) أي : مطلية بالقطران . (بازل علكوم دهماء قد اعتادت العمل الدءوب) . قد ضمرت وأحنق صلبها ، وأحال فيها الرضح والتصريم . والرضح : دق النوى . والتصريم : فساد الأَطْبَاء . وربما كُوِيَت لئلا تُحْلب . قد أعجل كرَّ هذه الناقة رجل دميم الخلقة ، قد ابتذل نفسه للعمل فتقاطر عليه دنس الهناء ؛ فهو يوافيها بدلو من جلدين . هذا الدلو قلق المحالة (البكرة التي يلتف عليها الحبل) ، قد دبغ بشجر السَّلَم حتى لان ، فتحيّر فيها الماء وألقي قتبها المحزوم . . وقبل أن يستدعينا التفرُّس في ملامح هذه الناقة وأحوالها ، يثير انتباهنا تشابه المقاطع التي ختم بها كلٌّ من مشهد الطلل في أول القصيد ومشهد الظعن :

فهناك :

حَتّــى تَنَكَّــرَ نُؤيُهــا الــمَهــــدومُ

وهنا :

بكـــرت بـــه جرشـــية مقطـــورة تُروي الـمَحـاجِرَ بـازِلٌ عُلكـومُ
حَتّـى تَحَيَّـرَتِ الـدِبارُ كَأَنَّـها زَلَفٌ وَأُلقِـيَ قِتبُهـا الـمَحـزومُ

والتشابه في البناء التركيبي في (حتى تنكر) و (حتى تحيرت) يشي بتقارب الروح التي نسج بها الشاعر صوره ؛ فهي تدل على معاني انتهاء الغاية ، وإشباع النفس وإروائها! .

وهذا يزيد إصراراً على أن هذه القصيدة قائمة على أنغام التغني بالأمجاد والتلذذ بذكر المآثر ، وبَسط القول في هذه الأجواء من المعاني .

وإذا عدنا إلى هيئة ناقة السقاء التي تفرعت عن صورة الظعن نجدها صالحة للإشارة إلى أحوال الحرب وفلكها الدائر ؛ ولكن من طرق خفي ونفس متئدة الخاطر ، تسير في خطى واثقة مطمئنة .

ثالثا : وصف الناقة :

لَـولا تُسَـلّيكَ اللبانَـةَ حُـرَّةٌ حَـرَجٌ كَأَحنـاءِ الغَبـيطِ عَقـيم
حَرفٌ أَضَرَّ بِهـا السِّـفارُ كَأَنَّـها بَعـدَ الكَـلالِ مُسَـدَّمٌ مَحجـومُ
أَو مِسحَلٍ سَـنِقٍ عِضـادَةَ سَـمحَجٍ بِسَـراتِها نَـدَبٌ لَـهُ وَكُلـومُ
جَـونٍ بِصـارَةَ أَقفَـرَت لِمُـرادِهِ وَخَـلا لَـهُ السُّـؤبانُ فَـالبُرعومُ
وَتَصَـيَّفا بَعـدَ الرَبيـعِ وَأَحنَقـا وَعَلاهُما مَوقـودُهُ الـمَسـمـومُ
مِن كُـلِّ أَبطَـحَ يَخفيـانِ غَمـيرَهُ أَو يَرتَعـانِ فَبـارِضٌ وَجَمـيمُ
حَتّـى إِذا انجَـرَدَ النَّسـيلُ كَأَنَّـهُ زَغَـبٌ يَطـيرُ وَكُرسُـفٌ مَجلـومُ
ظَلَّـت تُخالِجُـهُ وَظَـلَّ يَحوطُها طَـوراً وَيَربَـأُ فَوقَهـا وَيَحـومُ
يُـوفي وَيَرتَقِـبُ النِّجـادَ كَأَنَّـهُ ذو إِربَـةٍ كُـلَّ الـمَـرامِ يَـرومُ

حَتّــى تَهَجَّــرَ فِي الــرَواحِ وَهاجَــهُ طَلَبُ المُعَقِّــبِ حَقَّــهُ الــمَظــلومُ
قَرِباً يَشُجُّ بِها الــخُــروقَ عَشِــيَّةً رَبِــذٌ كَمِقــلاةِ الوَلِيــدِ شَــتيمُ
وَإِذا تُرِيــدُ الشَّــأوَ يُــدرِكُ شَــأوَها مُعــجٌ كَــأَنَّ رَجــيعَهُنَّ عَصــيمُ
شَــدًّا وَمَرفوعــاً يُقَــرِّبُ مِثلُــهُ لِلــوَرِدِ لا نَفِــقٌ وَلا مَســؤومُ
فَتَضَــيَّفا مــاءً بِــدَحلٍ ســاكِناً يَســتَنُّ فَــوقَ سَــراتِهِ العُلجــومُ
غَلَــلاً تَضَــمَّنَهُ ظِــلالُ يَراعَــةٍ غَرقــى ضَــفادِعُهُ لَهُــنَّ نَئــيمُ
فَمَضى وَضاحي المــاءِ فَــوقَ لَبانِــهِ وَرَمى بِهــا عُــرضَ السَّــرِيِّ يَعــومُ
فَبِتلكَ أَقضــي الــهَمَّ إِنَّ خِلاجَــهُ سَــقَمٌ وَإِنّــي لِلخِــلاجِ صَــرومُ

جاء مشهد هذا الفصل متصدرا بالأداة (لولا) وهي في الأصل حرف امتناع لوجود . وقد عوَّل محقق الديوان دكتور إحسان عباس على صاحب الخزانة أنها تفيد معنى (هلاَّ) وهي الأقرب فيما يبدو[1]، وكأنها تهمس في أذن النفس بأن وراءها حاجة تطلبها وتلحُّ عليها . وهذا لا يمنع من التماس معنى يقارب من إرادة الوضع الأصلي ؛ فهي تذكر امتناع الهم ، وذهابه لوجود هذه الناقة التي ترمز إلى محيط القبيلة ودرعها الحامي ؛ ولكنها تحتاج إلى تقدير فعْل محذوف . وفي المعنى الأول من الشاعر احتشادًا لهذا المشهد يتراءى من خلال ماتخيره لهذه الناقة من صفات ؛ فهي (حَرَجٌ كَأَحناءِ الغَبيطِ عَقيمُ) والعقم في الناقة أقوى وأشد لها . وهي حرف ضامرة ، قد أضر بها كثرة الأسفار حتى تهيجت فأصبحت كالفحل الهائج الذي حبس عن الضِّراب ، وهي صورة تظهر مدى الحنق الطاغي في جوف هذا البعير ؛ مما جعل الشاعر يعدل عن إتمام هذا الصورة وانتقاء مايمثلها خير تمثيل ، فانتقل إلى تصوير حال حمار الوحش . أضف إلى ذلك أن الشاعر قد استنفد شيئًا من صفات الناقة في المشهد السابق الذي حكى تفاصيل حال البكاء في مشهد رحيل الظعن ، وهذا

(١) ديوان لبيد : ص١٢٤ .

شيء يدل على قدرة الشاعر على استخدام الوصف ، وتطويع دلالاته في المشاهد ، وعدم إدارة المعاني على الصورة نفسها .

فهذا الحمار فحل ، بشم من الشبع ، قد تعاضد له أتان سمحج فلم يحجزه عن رَمْحها ، وعضِّها شيء وقد أعقب ندبًا في ظهرها ، وكلومًا جراء تلازمه لها .

وهذا المشهد ظاهر الدلالة على القوة والهيمنة وإحكام القبضة ، وهو مناسب جدًّا وقريب من حال قوم لبيد في بسط نفوذهم وسلطان قوتهم على من حولهم من الأقوام!! .

ثم انظر إلى نوع النعوت الي ارتضاها الشاعر لهذا الحمار الذي تفرع عن تشبيه الناقة وكيفيات المشاهد وحيثياتها تجدها تصب في محيط الغلبة واقتحام المجد ، وبسط السلطان . فليست هي ناقة : (١)

وَجَناءُ تُرقِلُ بَعدَ طولِ هِبابِها ... إِرقالَ جَأبٍ مُعلَمٍ بِكُدومِ

وَيَظَلُّ مُرتَقِباً يُقَلِّبُ طَرفَهُ ... كَعَريشِ أَهلِ الثَلَّةِ المَهدومِ

ولاتجد في مشاهد أحداث هذا الحمار صورة له ، وهو خائف يترقب أو يسحل بصوته لفوات شيء ، أو محاذرة اغتيال : (٢)

كَأَنَّ سَحيلَهُ شَكوى رَئيسٍ ... يُحاذِرُ مِن سَرايا وَاغتِيالِ

وإنما تجده :

يُوفي وَيَرتَقِبُ النِجادَ كَأَنَّهُ ... ذو إِربَةٍ كُلَّ المَرامِ يَروُمُ

حَتّى تَهَجَّرَ في الرَّواحِ وَهاجَهُ ... طَلَبُ المُعَقِّبِ حَقَّهُ المَظلومُ

والمتأمل لأحداث حكاية هذا الحمار ويتأمل في دقائق التفاصيل التي روى بها مشاهد فصوله . يجدها تأخذ منعطفًا مغايراً من حيث الأريحية التي يسير

(١) ديوان لبيد : ص١١٦-١١٧

(٢) السابق : ص٨٤ .

بها وهو يشق طريقه نحو الماء ؛ فهو يرتع مع أتانه مع كل أبطح . . . (حَتّى إذا اِنجَرَدَ النَسيلُ كَأَنَّهُ زَغَبٌ يَطيرُ وَكُرسُفٌ مَجلوم) . وتأمل هيئة بناء المعنى الذي يرسخ فكرة الإرواء والإشباع التي زخرت بها هذه القصيدة ، وماطوته الصورة في باطن أحشائها من طول بقاء هذه الحمر في مراتع (بارض وجميم)، حتى ينجرد نسيلها أي : وَبْرها وكأنه زغب الطير ، أو نفافيش قطن تناثر مع الهواء .

ويدعوني التأمُّل إلى النظر للتشابه الحاصل بنية الكلام : « (حتى إذا ، فهي تعود بناء إلى حديث المطلع في الطلل (حتى تنكر نؤيها المهدوم) وخاتمة المعقد الذي حكى فيه مشهد الظعن (حَتّى تَحَيَّرَتِ الدِبارُ كَأَنَّها زَلَفٌ وَأُلقِيَ قِتبُها المَحزومُ) ، وهذا ينبهنا إلى أن الشاعر يريد أن يبلغ بالنفس غاياتها في المجد ، والوصول بها إلى أعلى مراميها ، وأن القصيدة بنيت على هذه الروح الطامحة ، المنتفجة في مواطن الغلبة .

ومن ملامح الهيمنة البادية على أتانه وهو يحوطها طوراً ويربأ فوقها ويحوم « قوله :

حَتّى تَهَجَّرَ في الرَّواحِ وَهاجَهُ طَلَبُ المُعَقِّبِ حَقَّهُ المَظلوم

وفيها إشارة بالغة الانحسار والتكشف ، وهي من آكد العبارات الرامية إلى دلالة الغرض وصميم الإنباء عنه . انظر إلى شدة قربها من قوله :

إنّي اِمرُؤٌ مَنَعَت أَرومَةُ عامِرٍ ضَيمي وَقَد جَنَفَت عَلَيَّ خُصومُ

إضافة إلى ماحفل به هذا المقطع من ملامح (يشج بها الخروق)، و(إذا تريد الشأو يدرك شأوها معج كأن رجيعهن عصيم) والشأو : السبق ، والمعج : العدو السهل اللين ؛ فكأن اسوداد قوائمهن في العدو بهن القطران ، وهي إشارة رامزة إلى قوة ، وربما البطش .

وانظر إلى هيئة العدو وهنَّ ناحايات باتجاه الورد ، فهي في غاية السلاسة والمسرة (لا نَفِقٌ وَلا مَسؤومُ) ثم تأمل حال الماء المورود ، وصفات البهاء التي

اكتسب ؛ فهي ذات أمواج (يَستَنُّ فَوقَ سَراتِهِ العُلجومُ) والعلجوم : الأمواج . وقيل : الضفادع . وكلاهما يظهر جوًّا من التنعم والبهجة . هذا الماء ظاهر جارٍ بين الشجر ، وظلالُ القصب (غَرقى ضَفادِعُهُ لَهُنَّ نَئيمُ) وحسبك هذه الجملةً الحالية التي لخصت كثيرا من أحوال النفس ، وكشفت معالم أسرار الجمال التي احتضنها هذا الماء ، وكيف جاء الضمير (لهنَّ «عقيب ضفادعه الغرقى) لتحكي مشهدًا من مشاهد التلذذ والاستغراق!! .

ثم جاءت الفاء في قولة (فمضى وضاحي الماء) لتختم آخر فصول المشهد ، وكيف لهذا الفحل أن يرمي بأتانه (عُرضَ السَّرِيِّ يَعومُ) والسرى : وسط الماء . فلم يُنَحِّها جانبًا ، خوفًا عليها ؛ بل تركها (تعوم) . وانظر إلى دلالة هذا الفعل في استمرار المدة . وممارسة العوم ، وما تحفزه من معاني اللهو والمرح ، وكأنها هواية تستجم إليها . فهي راتعة في شعاب الوادي ، ومسايل البطاح ، وموارد الماء !! .

كل هذه المشاهد لم تغب بتفاصيلها ومشاهدها عن مواطن الغرض الأم للقصيدة ؛ فهي تحكي صورا من صور الهيمنة وبسط السلطان ، واعتلاء قبة المجد الذي ظل يتغنى بها الشاعر على مدى هذه الفصول ، وبرزت لنا في ملامح تلك التفاصيل ! .

* * *